تحضير روح كورونا

مجموعة قصصية

طارق حنفي

الطبعة الأولى

2020م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

عنـــوان الكتاب: تحضير روح كورونا

اســـم المـؤلف: طارق حنفي

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقـم الإيـــداع: 21598 / 2020

الترقيـم الدولي: 6 - 93 - 6830 - 977 – 978

تـصـميـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

تحضير روح كورونا

مجموعة قصصية

طارق حنفي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حلمك

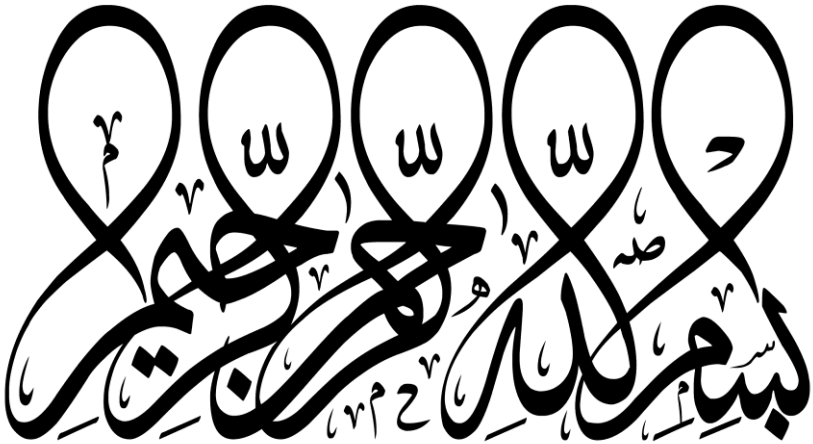
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى قلوب عامرة لم ينقص منها عطاء، دافئة على الدوام لم ينل منها شتاء.....

إلى كلّ من وقف بجوارنا لعلنا ننضج، ومن وقف في وجوهنا خوفاً علينا من أن ننضج.....

إلى كلّ روح طيبة لا يلهيها الأمل ولكن رضا الله.

إلى كلّ تلك الأرواح التي تركتنا حين جاءها الأمر.....

أهديهم كتابي....

طارق حنفي

****

أشباه البشر

لم أستطع أن أتذكر اللحظة التي تحولت فيها دفة الحديث، حاولت كثيراً وفي كل مرة أجدني أعود إلى البداية، لقد بدأ كثرثرة عادية بيني وبين زميلي في العمل، حيث يجمع مكتبينا غرفة واحدة، بابها على يسار مكتبي، وعن اليمين يحتل الحائط كله ما يشبه المكتبة العتيقة والتي تستخدم لتخزين الملفات، وأمامي يجلس زميلي هاني على مكتبه.. كانت واحدة من الأحاديث التي تشبع جو الغرفة بالبرودة، تلك الأحاديث الروتينية المليئة بالهمهمات والإيماءات، دون عناء النظر إلى محدثك، لكنه الآن اتخذ منحى مختلفاً تماماً، كنت متمسكاً بجبل أفكاري أجذبه بكل قوتي حين قطعته صرخة أطلقها هاني، وهو عالق بين مكتبينا يغدو ويجيء بينهما في حماسة عجيبة لا تتناسب وطبعه الرصين، ثم بدأت الكلمات تنساب من فمه كالحمم؛ حتى أن حرارة الغرفة بدأت ترتفع وهو يقول: أعلم أنه أمر غريب وأنك لا تصدقني، لكن أقسم لك يا شريف أنه قد حدث، كان يحرك كلتا يديه أمام وجهه وهو يقول في عصبية: لقد كنا نجلس سوياً، ثم فجأة تحول لون وجهه إلى الأحمر، وزاغت عيناه قبل أن يغوصا في محجريهما، نطق الجزء الأخير من كلامه في دهشة حقيقية وهو ينظر إليّ في حيرة..... كنت على وشك أن أخبره أنني قد رأيت مثل ذلك بدوري، نعم رأيته كثيراً مؤخراً، لقد أصبحوا

يحيطون بنا من كل اتجاه، حتى أظن أنهم على وشك أن ينقضوا علينا؛ ليفتكوا بنا، فتحت فمي بالفعل لأخبره عن السر الكبير، عن الكلمة التي بمجرد أن ينطقها أمام الواحد منهم تكشفه له على الفور، في الحقيقة هي ليست كلمة واحدة ولكن عدت كلمات؛ تعمل تماماً كالمفاتيح، ولكل واحد منهم كلمته التي تجعله يتحول في الحال، لكل واحد منهم مفتاحه الذي يسبر أغوار نفسه، ربما هو قد نطق الكلمة التي تناسب نفسية محدثه، نطقها بعفوية في أثناء حديثه معه فتحول لون وجهه أمامه، إنك بمجرد أن تنطقها أمام الواحد منهم يتحول لون الوجه ليس فقط إلى الأحمر ولكن لألوان مختلفة بحسب الكلمات، لكنه عاد يقول في دهشة: لقد كان يشبه البشر تماماً، حتى أنه يتكلم بلسان كلسان البشر! ويمشي على قدمين! صمت أخيراً لكنه ما لبث أن نظر إليّ في حيرة وهو يقول: هل هو فعلاً إنسان؟! هل ما رأيته من تغير لون وجهه وزيغ عينيه كان مجرد وهم؟!.....

فتحت فمي لأخبره أن أكثر ما يفضحهم في هذه الحالة هو النظر داخل أعينهم؛ لأن العين هي نافذة الروح، فإنك إن نظرت داخل عيني أحد منهم فلن ترى شيئاً أبداً، لن ترى سوى الظلام، لقد أصبحوا بلا روح، لكني ورغماً عني عدت وأطبقت شفتي؛ حين اقتحم علينا الغرفة فجأة زميل آخر، كان ينظر إليّ في حسد وهو ويقول بصوت عجيب: إنها حادثة مروعة، الأطباء يقولون أنّه لن يستطيع العودة إلى العمل مرة أخرى، سأله هاني في

لهفة: ماذا حدث؟ ومن هو؟ لكن ذلك الزميل لم ينطق بحرف وهو مشغول بالنظر، وعينه تطلق سهام الحسد، راودتني حوله الشبهات؛ مما جعلني أنطق بكلمة الحسد في وجهه، وانتفض جسد هاني ولون وجه ذلك الزميل يتحول بالتدريج إلى الأصفر، قال هاني في دهشة: إنه منهم، إنه من أشباه البشر!! التفت ذلك الزميل ناحية هاني، وبوجه كساه الصفار تكلم بآلية، كأنه فقد مشاعره الإنسانية وبصوت معدني رتيب قال: ماذا تعرف أنت عن البشر أو أشباه البشر؟ أنت تعيش بمفردك؛ بلا أي التزامات؛ لا تثقل كاهلك الأعباء؛ لم توضع يوماً في مواقف تضطر فيها إلى الاختيار بين نجاتك أنت وأسرتك أو نجاة غيرك، بين حياتك أو حياته، قاطعه هاني وهو يقول في استنكار: لكن لماذا يجب أن يحيا واحد منكما فقط؟ لماذا لا يحيا الجميع معاً؟! ضحك ذلك الزميل ضحكة تردد صداها المعدني في الغرفة قوياً وهو يقول: لأنها القوانين، قال هاني: إنها قوانين الغابة، وليست قوانين البشر، هناك ما يسمى بالصفات الإنسانية والتي تجعل منا بشراً؛ هي ما يتيح للواحد أن يعيش بجوار الآخر في سلامٍ وأمان، صمت هاني بعدها وهو يعقد حاجبيه في تفكير عميق، ثم ما لبث أن التفت ناحيتي وهو يقول في شرود: أعتقد أني قد فهمت الأمر الآن؛ فكلمة السر هي التي تفرق بين أن يكون الشخص بشرياً أو من أشباه البشر.... نظرت إليه وأنا أمط شفتي دون أن أنطق بكلمة واحدة؛ مما جعل هاني ينظر إلي في توتر وهو يقول في حذر لم يكن له ما يبرره: لكن كيف نعيده إلى حالته الأولى؟؟ كيف نجعل لون

وجهه وصوته وعينيه يعودون إلى طبيعتهم؟؟ كان السؤال مفاجئاً لي بالفعل، نظرت إلى ذلك الزميل وأنا أتمتم بيني وبين نفسي: بالفعل، كيف يمكن لأشباه البشر أن يعودوا بشراً مرة أخرى؟؟.....

عدت إلى مسكني أخيراً بعد ذلك اليوم الطويل الحافل بالكلام، وبمجرد أن عبرت الباب وضعت المفاتيح والموبايل على الكونسول بجواره، ثم خطوت داخل الشقة خطوات قليلة قبل أن ألقي بجسدي المنهك على الأريكة في الصالة، كنت أشعر بالإجهاد على غير العادة، أشعر به ينتشر في ربوع جسدي كظلام الليل، ها هو يصل إلى رأسي ويهجم على عقلي ليغلفه بقطع من الليل المظلم، لكني قاومته وأخيراً فتحت عيني في ضعف وأنا أتمتم في حيرة: لكن كيف للشبيه أن يعود بشرياً مرة أخرى؟؟ رن الموبايل في إلحاح، قمت وأنا أجرجر قدمي إليه، أمسكت به وفتحته، ألو، مرحبا، هاني ماذا هناك؟ أنت قد عرفت الكلمة التي تجعلهم يعودون بشراً مرة أخرى؟ تقول أنّك جربتها مع ذلك الزميل بعد أن غادرت أنا العمل، وقد أفلحت معه؛ وعاد بشرياً مرة أخرى، آه الكلمة هي...، نعم نعم عرفتها، مع السلامة... ألقيت بجسدي على الأريكة مرة أخرى، نفضت الأمر عن رأسي حين تذكرت أمر الحادثة، وكيف كان ذلك الزميل ينظر إليّ في حسد قبل أن يتحول، كان يخبرنا بأن المدير لن يستطيع العودة إلى العمل مرة أخرى، لكن لماذا كان ينظر إليّ أنا بالذات في حسد؟؟ آه، الجميع يعلم أنني من

سيأخذ مكان المدير الآن، انتفض جسدي والموبايل يرن في يدي رنة ذات دلالة معلناً عن استقبال بريد إلكتروني جديد، وقرأت الرسالة، ها هي الشركة تعلن الأمر بصورة رسمية؛ لقد أرسلت رسالة تأكيد بأنني قد أصبحت مديراً، انتابتني مشاعر غريبة؛ لماذا أشعر بالظمأ الشديد؟ وبالحكة في رأسي؟ ثم بدأ يحدث ذلك الأمر العجيب؛ لقد بدت لي الصالة كأنها تنكمش وتتمدد أمامي، الرؤية تخفت وصوت صافرة حادة يخترق طبلة أذني بقوة يكاد معها أن يمزقها، وكما بدأ كل شيء فجأة هدأ فجأة، شعرت بالذعر وأنا ألتقط أنفاسي في صعوبة، ماذا يحدث لي؟ هل أصابتني سهام زميلي حسداً؟ أشعر بجلدي يذوب وبلحمي يحترق، هذه العلامات تشبه ما كان يحدث لذلك الزميل قبل أن يتحول في المكتب، هرولت مسرعاً إلى الكونسول وأنا أنظر إلى صورة وجهي المنعكسة في المرآة، كان يبدو عليه الشحوب والإجهاد، حتى أنه قد خُيّل لي من فرط الإجهاد أن صورتي في المرآة تبتسم، مهلاً إنها الآن ترقص فرحاً، كأنها تعكس صورة غير صورتي! أو كأنها قد استقلت عني! جالت في خاطري فكرة عجيبة نظرت إلى صورتي وأنا أنطق كلمة من كلمات السر العديدة، الكلمة التي تفرق بين البشر الحقيقيين وأشباه البشر في حالتي، فتحت فمي وأنا أقولها بصوتٍ عالٍ: الشماتة، لقد نطقت الكلمة، ها هو لون وجه صورتي في المرآة يتغير إلى البرتقالي، اقتربت أكثر وأنا أنظر في عيني الصورة لكني لم أرَ سوى الظلام، ثم انتبهت إلى أن يدي مرفوعتان وجسدي يرقص في شماتة فرحاً، تذكرت

ما أخبرني به صديقي هاني، نظرت إلى عين صورتي في المرآة وأنا أنطق الكلمة التي ستعيدني بشراً مرة أخرى، لقد نطقتها: الرحمة، ها هي صورتي تعود بشرية مرة أخرى، اختفى اللون البرتقالي وابتسامة الشماتة من وجهي وتوقف جسدي عن الاهتزاز والرقص.....

****

العبيد

ما معنى الحرية يا جدي؟ سأل نبيل صاحب الخمسة عشر عاماً جده، لم يجبه جده على الفور؛ بل نظر إليه بوجهه الداكن الذي انتشرت فيه التجاعيد، ثم رفع يد معروقة تملؤها التشققات كأرض جرداء تضربها أشعة الشمس طوال العام؛ ربت بها على كتف نبيل قبل أن يغرق في ذكرياته، ذلك بأن الجد الذي يبدو عليه الوهن والذل لم يولد عبداً، بل كان في شبابه طالباً متفوقاً قبل أن تدق طبول الحرب الأهلية بلاده؛ مما كان سبباً مباشراً في غياب الأمن وانتشار جماعات الرق والإتجار بالبشر، لقد هاجمت هذه الجماعات قريته وقتلوا كبار السن ومنهم أباه وأمه، قبل أن يأخذوا البنات والصبية ويفروا بهم، ومن يد إلى يد وجد الجد نفسه وقد بيع عبداً إلى أحد الأثرياء، وعندما ذهبوا به إلى ضيعة ذلك الثري كان معه عدد كبير من الصبية والبنات، كانوا يبيتون جميعاً في كوخٍ واحدٍ بعيدٍ عن القصر المشيّد، قسمهم أسيادهم إلى قسمين، فكان جزء منهم يعمل في الزراعة وجني المحاصيل، وجزء آخر في العناية بالبهائم والطيور... لا ينكر الجد أن ذلك الثري صاحب الضيعة كان يعاملهم برفق وكذلك ابنه من بعده؛ لقد كان يسمح لهم بالقراءة أحياناً، كما أنه عندما كبر الأولاد والبنات سمح لهم بالزواج من بعضهم البعض وتكوين أسرهم الخاصة؛ مما

اتبعه اتساع المكان المخصص لهم، لقد أصبح يحتوي على خمسة أكواخ كبار، يحتوي كل كوخ أسرة منهم، توفي الثري وبعد فترة توفي الابن كذلك، لخلفه ابنه الوحيد والذي لم يكن يشبه أباه في أي شيء سوى في أنفه المستدق وفكه العريض، ما عدا ذلك كان مراد بيك حادَ الطباع سادياً؛ يعاقب أي واحد منهم على أقل الهفوات والأخطاء، وفي كثير من الأحيان كان يجور عليهم ويعاقبهم دون ارتكاب أي أخطاء؛ يعاقبهم فقط للمتعة، لقد كان يقول دائماً بأنه يملك الأرض بما عليها من الزروع والحيوانات والبشر، وما فوقها من الهواء والسماء والطير الذي يطير فيها....

مر الوقت والجد ما زال يضع يده على كتف نبيل وهو غارق في ذكرياته؛ مما جعل نبيل يقول دهشة: جدي! انتبه الجد، ثم نظر إليه وهو يقول فجأة وبصوت عميق: الحرية يا بني هي: أن تملك الإرادة لفعل ما تشاء وقتما تشاء، نظر نبيل إلى الأرض وهو يقول في حزن: لكننا لا نملك أن نفعل ما نشاء، نحن نفعل ما يأمرنا به أسيادنا وإلا العقاب، نعمل ونأكل ونشرب وننام وفق أوامرهم، لكن الجد قاطعه وهو يستجمع خيرات السنين قبل أن يقول في حماس: اسمع يا بني: لكل شيء مفهوم ومعنى باطن نشعر به ونفهمه كما له مظاهره التي نراها أمامنا، المفهوم واحد بين الجميع لكن المظاهر تختلف، نظر إليه نبيل في حيرة؛ مما جعل الجد يعود ويقول: البشر جميعاً يشتركون في بعض الأمور الضرورية كالطعام والشراب والملبس والنوم....إلخ

أليس كذلك؟ غمغم نبيل: بلى، قال الجد: لنفترض مثلاً أنني أعشق الطعام وأفضله على كل شيء آخر؛ لدرجة أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من فعل أي شيء لأحصل عليه، بالتأكيد سيصبح الطعام متحكماً فيّ، سيصبح سيداً عليّ، كذلك الفرد الذي يعبد المال أو الثياب، نظر إليه نبيل وهو يقول بذهن شارد: يكون عبداً للطعام أو الشراب أو الثياب؛ ابتسم الجد وهو يقول: تماماً يا بني، انظر مثلاً إلى حراس وخدم مراد بيك، فهم ليسوا عبيداً له يملكهم كما يملكنا، لكنهم ومع ذلك قد أصبحوا عبيده، ولكن بطريقة أخرى؛ إنهم عبيد المال الذي يملكه، يطيعون أوامره من أجل المال، لدرجة أن أحدهم قد يؤذي غيره من دون ذنب؛ فقط لأن مراد بيك أمره بذلك... يمكنك أن تقيس على ذلك الصفات المذمومة كالكره والحسد فهي تتحكم في صاحبها تحكم السيد للعبد، لكن مظاهر الحياة قد تختلف من شخص إلى آخر، قد يكون أحدهم غني والآخر فقير، قد يكون أحدهم متعلماً والآخر جاهلاً؛ البشر لا يملكون أن يتحكموا في هذه المظاهر المختلفة، لكنهم يملكون أن يعملوا على إصلاح أنفسهم وقلوبهم وصفاتهم، يا بني ربما لا أملك أن أعمل أو أنام وقتما أشاء أو كيفما أشاء، وربما لا أملك أن أكون عبداً مملوكاً لمراد بيك، لكني أملك أن لا أكون عبداً للطعام والمال والثياب، أو عبداً للصفات المذمومة كالغلّ والكره والحسد، يا بني طالما مراد بيك لم يملك نفسك وقلبك فأنت ما زلت حراً، لكن في الوقت الذي يخذلك فيه قلبك وتفقد معاني الإنسانية بداخلك

ستكون عبداً حقيقياً، ثم ابتسم الجد وهو يقول له: والآن يجب أن تنام فغداً هو يوم الصيد الأسبوعي؛ وستكتظ الضيعة بركب مراد بيك وخدمه وحراسه... بالطبع هو لم يستطع النوم؛ لقد كان ما يزال يفكر في كلام جده، خصوصاً الجملة الأخير منه: يا بني املأ قلبك بالأمل، مَن يدري؟ لربما تتغير الأحوال ويصبح العبد حراً، لكنه وبعد فترة غلبه النوم.....

لقد بدأ فصل الشتاء بالفعل، وقريباً سوف يهاجر البط البري إلى مناطق أكثر دفئاً يا سيدي، نطقها أحدهم وهو يسير خلف مراد بيك ضمن مجموعة كبيرة من الحرس والخدم، كان يشعر بالفخر بما يملكه من معلومات متفوقاً على أقرانه وهو يتباهى بها؛ لذلك فقد أخذته الصدمة عندما غمغم مراد بيك دون أن يلتفت إليه: أعلم، أعلم، وهو يقوم بوضع الذخيرة في بندقية الرش التي يحملها، نظر الرجل المصدوم إلى الأرض وهو يتمتم بصوت خافت لم يجرؤ على رفعه: لكن الناس لا تصطاد البط ببنادق الرش بل بالخرطوش، غمزه الشخص الذي يسير بجواره بمرفقه وهو يضع إصبعه على فمه ويقول: شوش، أُسكت بالله عليك، كان الجميع يسير خلف مراد بيك قبل أن يشير هو إليهم أن يتوقفوا، توقف الجميع وهم يختبئون بين الأشجار، ثم أشار لأحدهم فوضع ما يشبه الصافرة في فمه وينفخ فيها فتطلق صوتاً مشابها لصوت البط؛ حتى يجذب بعضه، وأفلحت الحيلة وظهر عدد قليل من البط أمامهم، وجه إليه مراد بيك البندقية وأطلقها،

لكنه لم يصطد أي شيء؛ مما جعل أحدهم يطلق ضحكة سخرية مكتومه، لكن مراد بيك سمعها فتوجه إليه في غضب واضح وصفعه على وجهه بقوة، مر الوقت ومراد بيك يحاول أن يصطاد شيئاً لكن هيهات فقد استعصى البط جميعاً عليه؛ خصوصاً وهو يأبى أن يعترف بخطئه حول نوع البندقية التي يجب أن يستخدمها، كانت الشمس على مشارف الغروب عندما حدثت المعجزة؛ لقد بدا لمراد بيك أنه قد أصاب شيئاً ما؛ مما جعله يشعر بالزهو وهو يطلق ضحكاته عالياً، وعندما توقف عن الضحك أخيراً طلب من أحدهم أن يذهب ويأتيه بالصيد الثمين، ذهبوا واحداً وراء الآخر لكنهم لم يجدوا شيئاً، عاد الجميع يجرون أذيال الخيبة وهم يعلنون فشلهم في إيجاد أي شيء؛ مما جعل مراد بيك يشعر بالغضب؛ تجرأ أحدهم أخيراً وهو يقول: ربما لم يتم اصطياد شيء بالفعل؛ مما زاد من غضب مراد بيك وجعله يأمر باستدعاء الجميع ليبحثوا عن صيده، ذهب مراد بيك إلى القصر وترك جميع العبيد والحرس والخدم يفتشون عن صيده الثمين.....

إنه ذكر فهو أكبر حجماً، التفت نبيل في سرعة وهو ينظر بوجه شاحب إلى الرجل الذي نطق الكلام؛ ثم زفر في قوة كأنه يطرد توتره خارجاً قبل أن يبتسم ويقول: لقد أفزعتني يا جدي، نظر إليه الجد نظرة لوم وهو يقول: فلتحمد الله أنه أنا ولم يكن أحد آخر، قال نبيل في سرعة: أرجوك يا جدي أنا لم أستطع أن أتركه مصاباً هناك، قال الجد وقد انتقل إليه التوتر

وبدا واضحاً في صوته: لكن كيف وجدته؟ أجابه نبيل: لقد كنت أهم المغادرة بعد أن أنهيت عملي، ثم رأيته يسقط بالقرب مني، أخذت أتلفت حولي لأرى إن كان أحد غيري قد رآه؛ وعندما تيقنت من عدم رؤية أحدهم له ذهبت إليه وأخذته خلسة؛ ثم عدت إلى الكوخ وأنا أخفيه تحت طيات ثيابي، انظر يا جدي هو ما زال حياً لكنه مصاب بشدة، ثم استطرد: أرجوك يا جدي لا تطلب مني أن أعيده إلى مراد بيك، أرجوك، شعر الجد بالدهشة وهو يرى الدمع يسيل من عين حفيده؛ وتملكت الشفقة قلبه، ليس فقط على ذكر البط ولكن على نبيل الذي يأخذ الأمر على محمل شخصي، عقد الجد حاجبيه وهو يفكر فيما يفعله حفيده، ثم ما لبث أن تنهد وهو يتمتم: آه هكذا الأمر إذاً، نظر إلى حفيده وهو يقول في حنان واضح: دعنا نسعفه، هيا أسرع..... مرت ثلاثة أيام ومراد بيك لم يتوقف عن تفتيش الضيعة كلها، كان يفتش أكواخ الخدم والعبيد بنفسه، وكأنه يرفض فكرة أن يغادره أي شيء من ممتلكاته دون إذنه؛ وهو الذي يقول أنه يملك كل شيء، كان يدخل الأكواخ على سكانها بدون استئذان؛ ويفتش هنا وهناك وهو يقلبه على رؤوس أصحابه دون أي مبالاة لمشاعرهم، وفي اليوم الثالث دخل كوخ نبيل، أخذ يفتش يميناً ويساراً وهو يقلب كل شير في الكوخ رأساً على عقب، وأسقط في يدي الجد ونبيل الذين وقفا يطأطئان رأسيهما وهما ينتظران أن يجده مراد بيك، نظر الأب إلى الجد وهو يقول: لقد دخل غرفة نومكما أنت ونبيل، وبدا وكأنه على وشك الإمساك به،

كانوا جميعاً ينظرون إلى باب الغرفة ينتظرون خروج مراد بيك؛ يتخيلون غضبه حين يجد صيده؛ كما كانوا يتخيلون العقاب الذي سيلحقه بهم، وخرج مراد بيك وهو ينفث في غضب؛ ثم غادر الكوخ دون أن يجد شيئاً، نظر الجد إلى ابنه وهو يقول: لكن كيف؟ أين...؟ لكنه لم يكمل كلامه والأب يقول: هل تظن أننا لم نكن نعلم بوجود الطائر في الكوخ؟ نظر إليه نبيل وهو يقول: لكن أين أمي يا، أبي؟ دخلت الأم في هذه اللحظة وهي تحمل لفافة ما، اندهش الجميع وهي تخرج من اللفافة قفصاً وبداخله الطائر، ثم ما لبثت أن ابتسمت وهي تقول: لقد أخذته إلى الكوخ الذي بجوارنا، لكن الجد شعر بالقلق فقال في توتر: وهل تثقين بهم؟ أجابته على الفور: تمام الثقة، مر يومان آخران ازداد فيهم هياج مراد بك كما ازداد حزنه، ومع أنهم أصبحوا جميعاً يعرفون السر إلا أن أحداً من العبيد لم يخبر مراد بيك بما حدث من نبيل وجده.....

كانت الشمس قد غربت بالفعل حين دخل نبيل الكوخ مندفعاً، ثم توقف أمام جده وهو يلهث ويقول: جدي، جدي، لقد حان الوقت، يجب أن نطلقه الآن، نظر إليه الجد وهو يقول في هدوء: التقط أنفاسك أولاً، ثم أخبرني ما حدث، أخذ نبيل يلتقط أنفاسه إلا أنه لم يلبث أن قال: ليس هناك وقت فالطيور على وشك الهجرة، لقد كانوا يطلقون صيحاتهم وهم يحلقون بالفعل.... لا أحد يعرف كيف اجتمع العبيد هناك؟ لكنهم كانوا

يقفون جميعاً عن بكرة أبيهم، صغيرهم وكبيرهم، رجالهم ونساؤهم، وقفوا جميعاً وهم يحيطون بنبيل، يتطلعون إليه في لهفة وهو يخرج الطير من القفص ويحمله في يده، كان من الواضح للجميع أن الطير قد تعافى من الإصابة تماماً، وهو يطلق الصوت المميز للبط البري مما جعل بعض أقرانه يتجمعون فوق رؤوسهم وهم يبادلونه صوتاً بصوتٍ، رفع نبيل الطير عالياً والجميع ينظر إليه في فرحة عجيبة، وقلوبهم يخالجها شعور غريب، ربما هم لم يشعروا بمثل هذا الشعور من قبل، نعم هي المرة الأولى التي يشعرون فيها بالأمل، لكن مراد بيك ظهر فجأة، كان يسير في اتجاههم ومن خلفه حرسه وخدمه كالعادة، ومع ظهوره أخذ يصرخ عليهم أن يفسحوا له الطريق، لكن الغريب أن أحداً من العبيد لم يتحرك من مكانه، كل ما فعلوه أنهم التفتوا بأجسادهم ناحيته، وهو ما يزال يصرخ عليهم ويأمرهم أن يتحركوا بعيداً، كان الجميع ينظر إليه في صمت دون أن يتحرك أحد منهم شبراً، لكنه هو من تحرك وهو يجذب بندقية من يد أحد أتباعه، أطلق مراد بيك طلقة تحذيرية في الهواء وهو ينظر إلى العبيد في مقت وهو يقول: إن لم تتحركوا الآن ستصبح الطلقة القادمة داخل رأس أحدكم؛ شعر العبيد بالتوتر وربما بالخوف لكنهم ثبتوا في مكانهن، مرت الثواني دون حركة وكأن الصورة قد توقفت، ثم تقدم الجد ووقف أمام مراد بيك وهو يفتح صدره في شجاعة، وأطلق مراد بيك طلقة أصابت قدم الجد الذي سقط أرضاً؛ صرخ نبيل: جدي...

لكن الجد تحامل على نفسه وبصعوبة وقف مرة أخرى؛ وهنا تقدمت الأم وتبعها الأب ووقفا بجوار الجد المصاب، وضع الجد يديه على كتف أحدهما يميناً والآخر يساراً وهو يستند عليهما، وكانت المفاجأة لقد بدأ الجميع في التقدم أحدهم وراء الآخر ووقفوا بجوار ثلاثتهم؛ نظر مراد بيك إلى حراسه وهو يقول بصوت أراد له أن يكون آمراً، لكنه خرج رغماً عنه ضعيفاً متوتراً وهو يقول: أطلقوا النار عليهم، لكنّ أحداً من الحراس لم يطلق طلقة واحدة وهم ينظرون إلى الأرض، جرى مراد بيك ناحيتهم وهو يجذب أحدهم ويحثه أن يطلق النار، لكنه لم يستجيب له، تقدم العبيد أكثر ناحية مراد بيك الذي أصابه الخوف؛ تراجع أمامهم في سرعة مما جعله يتعثر ويسقط على الأرض؛ مط الجميع شفتيه وهم ينظرون إليه في ازدراء، كان الجميع يحيط بمراد بيك وهو ما زال واقعاً على الأرض، ووضح للجميع أن مراد بيك قد انكشف أمره؛ تقدم أحدهم منه وهو يهم أن يفتك به لكن الجد استوقفه وهو يقول: لا، لا يقم أحدكم بأذيته، لن نصبح مثله أبداً... وهنا علا صوت السرب وهم يطلقون صيحاتهم في آن واحد فرد عليهم الطائر في يد نبيل الصيحة، فتح نبيل يديه؛ فحلق الطائر وهو يضرب الهواء بجناحيه، كان المنظر عجيب والجميع ينظرون إلى الطائر الذي أصبح حراً وهو يطير عالياً في اتجاه السرب، نعم كان المنظر عجيب والعبيد كلهم ومعهم الحراس والخدم وكل واحد منهم يرفع يديه على جانبي جسده؛ وهو يحركها صعوداً وهبوطاً كالجناحين.....

المجذوب

يبدو أنيقاً في حلة سوداء وربطة عنق رمادية فوق قميص أبيض، يحاول أن ينقل قدميه بذلك الحذاء الأسود الكلاسيكي اللامع؛ لعلّه يستطيع أن يتخذ الخطوات الواسعة السريعة التي يتميز بها، لكنه اضطر أن يبطئ من حركته وذلك الزحام لا يتيح له أن يخطو الخطوة الثانية دون أن يتوقف لثوان بعد الأولى، كان يبذل قصارى جهده ليهرب من ذلك المكان الذي يغمره بمزيج من المشاعر الغريبة التي لا يجد لها توصيفاً، قادته قدماه رغماً عنه إلى ذلك الجزء حيث الزحام على أشده، حاول أن يتحرك لكنه لم يستطع؛ لقد كان كل ما يملكه هو ذلك الحيز الذي يشغله واقفاً، وهنا انفصل عن مزيج المشاعر بداخله شعور العجز وبرز على السطح، ليلخص حاله في هذه اللحظة، أخذ نفساً عميقاً في محاولة منه أن يسيطر على عجزه، ثم بدأ يمعن النظر في الأشياء من حوله لعلّه يستدعي منطقه، ينظر إلى التفاصيل الدقيقة ليجد لها ملمحاً، ثم ينظر إلى الصورة الكلية في محاولة منه أن يجد المعنى، تمتم بينه وبين نفسه: لقد قادتني قدماي إلى عمق المولد بدلاً من الخروج منه، هو مولد أحد الأولياء الصالحين الذي اشتهر بالكرامات كما يردد الناس من حولي، ثم نظر أمامه - مستغلاً طول قامته - وهو يقول: آه حلقة ذكر، كان هناك عدد من الرجال يتراصون في دوائر خلف بعضها البعض،

ويتمركز في وسطهم شيخ يرتدي بعض الهلاهيل، ها هم يهزون الجزء العلوي من أجسادهم في حركة نصف دائرية، وهم يرددون كلمة (الله) في صورة جماعية، قطع حبل أفكاره صوت يأتي من خلفه؛ التفت إلى مصدر الصوت فارتطم بصره بجماعه من المنشدين فتمتم: هم إذاً مصدر الأناشيد التي لم تصمت ولو للحظة واحدة، مزيج من الأغاني الشعبية والمديح والقصص الدينية، أخذ يتلفت عن يمينه وشماله وأصوات الألعاب الشعبية والطلقات النارية يكاد يصيبه بالجنون....

مرت الدقائق وهو لا يزال على حاله، ثابت في مكانه، ينظر إلى التفاصيل من حوله، ثم نفض رأسه؛ وهو يحاول أن يصرف عقله عن هذه التفاصيل التي تبث الريبة في نفسه، مما زاد من إصراره على مغادرة هذا المكان، تحرك في قوة وهو يحاول أن يتفادى الصوان الموضوعة على الأرض هنا وهناك، لكن هيهات، فمع ذلك العدد الكبير من الباعة الذين يفترشون الأرض بصوان من الحلوى الشرقية والمشبك والجوزية والبسيمة والملبن؛ بدأ يصطدم ببعضهم، كاد أن يتعثر ويقع فوقهم لولا أيدي الباعة التي منعته وهي تدفعه بعيداً، وأصوات أصحابها تتهمه بالجنون تارة وبالغباء تارة أخرى، كان يبدو على وجهه الضيق وهو يحاول أن يثبت في مكانه، لكنه لم يستطع؛ مال جسده وهو يصطدم بأحد المارة ويقع على الأرض، كان يحاول النهوض حين صك أذنه صوت فريرة وذلك الطفل ينفخها في وجهه بإصرار عجيب،

وبجواره طفل آخر يهز يده الممسكة بالشخليلة، تعلقت عينيه بذلك الرجل الذي اصطدم به وأوقعه أرضاً، كان الرجل يبتسم في بلاهة وهو يمسك بالطفلين بكلتا يديه ويضع على رأسه طرطور، أخيراً استطاع أن يقف في مكانه، تعلقت عينيه بالطرطور والباعة الغاضبون يرددون كلمتي غبي ومجنون، أخذ صدى الكلمتين يتردد في عقله وصورة الطرطور تحتل المشهد في عينه، وبدون أن يدري بدأ شريط ذاكرته يعرض فيلم أحداث يومه على شاشة مخيلته، انطفأت الأنوار في عينه، وصوت كلمة غبي ومجنون لا يزال صداهما يتردد قوياً في أذنه، وحين توقف صداهما كان قد ضرب على أذنه صمتاً مميتاً، وبدأ العرض، يراها الآن واقفة بفستان زفافها الأبيض ملاك جميل، يتأبط ذراعها مخلوق هو شيطان رجيم، ومن ورائهما يقف إبليس نفسه الذي رمقه بنظرة خرج معها النار من عينه، كاد لهيبها أن يحرقه لولا نور عينيها، نظر إليها، وجدها ترمقه بنظرة حب يغلفها الحنين، والماء المحبوس خلف النور يكاد أن ينفجر عيون، كان على وشك الغرق لولا أن أخذ إبليس بيده يجره جراً خارج قاعة الزفاف، كان صوت أبيها يبدو كصوت الجحيم وهو يصرخ فيه ويتهمه بالجنون، ويهدده إن لم يذهب سوف يستدعي له الشرطة في الحال....

حيييييييي،،،،،

أخرجه الصوت من شروده فنزل الستار، وأضيئت الأنوار، نظر إلى حلقة الذكر أمامه، وهو يتفحصهم من جديد، وبدون أن يدري عاد ينظر إلى أدق التفاصيل، هذا هو شيخهم الذي أطلق كلمة (حي)، كان الرجال لا يزالون يهزون أجسامهم في حركة نصف دائرية، وهم يرددون كلمة (الله) خلف الشيخ في صورة جماعية، كان الشيخ ينظر إليه وهو يبتسم في غموض ثم أطلق تلك الضحكة المميزة للمجاذيب، نظر هو إلى الشيخ في امتعاض قبل أن يرتسم على وجهه الضيق، لقد ميزهم هذه المرة، إنهم نفس الرجال الذين أدخلوه إلى ذلك المولد رغماً عنه، أشاح بوجهه بعيداً قبل أن يعود إلى شروده وهو يتمتم بينه وبين نفسه: لقد كانت جميلة في ثوب الزفاف، ظفر في ضيق وهو يقول: لماذا ذهبت إلى حفل زفافها الليلة؟ نعم لقد رأيت الدموع تملأ عينيها وأبوها يجرني من يدي خارج القاعة، هي الوحيدة التي شعرت معها بالحب، هي حبي الأول، وهي حبي الأخير، كان جمالها يشرق في عيني شمساً يبعث الدفء في جسدي، هي قمري الذي كان يضيء لي ظلمة الطريق،

قمرٌ، قمرٌ..... قمرٌ سيدنا النبي قمرٌ،،،،

وجميل، وجميل..... وجميل سيدنا النبي وجميل،،،،

أخرجه صوت أولئك المنشدون من شروده، وهم ينشدون القصيدة، نظر خلفه في حدة وميزهم، هم أيضاً كانوا يسيرون مع نفس الرجال في حلقة الذكر، وكانوا ينشدون ويتغنون على طول الطريق....

شعر بدوار يكتنف رأسه ازداد معه إصراره على الهروب من سجنه، تمتم بينه وبين نفسه: أشعر أني سجين، لابد أن أخرج، ثم شعر بالحيرة حين انتبه إلى أنه لم يكن يتمتم بينه وبين نفسه بل كان يتحدث بصوتٍ عالٍ، بل كان يصرخ بكل قوته، لكنه ومع الأصوات العالية الكثيرة من حوله لم يكن يسمع صوته، وفجأة امتزجت الأصوات في أذنه، كما امتزجت المشاهد في عينه، لكنه لم يكن على استعداد أن يستسلم لتلك القوة التي تضغط عقله وتحاول أن تجذب وعيه؛ فمع ازدحام التفاصيل والمشاهد حوله، تولدت صور جديدة في عينه، جعلته يفقد ميزة مخيلته؛ حتى أنه لم يجد ما يقارنه مما يراه من الصور حوله بالصور في خزينتها، ومع كثرة الأصوات وعلوها فقدت أذنه أهميتها؛ فلم تعد هي مصدر السمع والأخبار بل غدت وكأنها قد ضرب عليها بنوع من صمم الضوضاء؛ ومع تحييد السمع والبصر والخيال توقف عقله عن التفكير في ما حوله، وهدأ قلبه وسكن، وانصرفت عنه شواغله،

حيييييييي،

سأل نفسه في حيرة: لماذا أسمع تلك الكلمة وأميزها هي بالذات؟! كان يحاول بعقله المجهد أن يجد التفسير، لكنه ما لبث أن هز رأسه لعله يعود إلى ذكرياته مرة أخرى، كان كأنما يخوض حرباً مع نفسه لا يدري لها سبباً ولا هدفاً، وأغمض عينيه، وانطفأت الأنوار مرة أخرى وساد الصمت وبدأ العرض، هو الآن في عمله واليوم من بدايته، يدخل على مديره ليعرض عليه مقترح من شأنه أن يجذب مزيداً من العملاء، يتذكر كيف تطور بينهما النقاش واحتدَّ، حتى وصل إلى أن اتهمه مديره بالغباء، قبل أن يعلو صوته ويطرده من مكتبه، بل ومن العمل كله، اهتزت المشاهد على الشاشة فجأة ومشهد حفل الزفاف يعود ليقتحم ذاكرته، واختلفت التفاصيل، فهي لم تكن تحبس دموعها ولم تنظر إليه نظرة حب ولا حنين، لقد كانت تنظر إليه في لا مبالاة قبل أن تشيح بوجهها عنه، وتلتفت إلى عريسها وهي تضحك معه في سعادة واضحة، صرخ بأعلى صوته وهو ويقول: لاااااا، لا يمكن، إن هذا لم يحدث، إن ذاكرتي تخدعني أو أني أحلم...

تسارع شريط ذكرياته لينتقل إلى تلك الدقائق قبل أن يدخله هؤلاء القوم إلى المولد رغماً عنه، إلى تلك اللحظات بعد طرده من حفل الزفاف، حين قرر الانتحار، ها هو واقف هناك تثقل كاهله خيبة الأمل فهو بلا حب ولا عمل، يشعر بأن كل من حوله لا يريدونه، وينشدون رحيله، يشعر بأنه مشرد لا يجد مكاناً على ظهر الحياة، ها هو يستعد لكي يلقي بنفسه في البحر،

كان قد أخرج جسده خارج السور بالفعل، وبينما هو يفلت يده ليقفز أمسكت بها تلك اليد، وجذبته خارجاً لتسلمه إلى يد آخر فتسلمه بدورها إلى أخرى، وفي النهاية وجد نفسه محمولاً على أكتاف بعض الرجال الذين يسيرون في موكب خرج من مكان ما للاحتفال، بمولد ذلك الولي في ليلته الكبيرة، كانوا ينشدون الأناشيد ويذكرون الله طول الطريق، وعندما وصلوا قاموا بإلقائه داخل المولد وتركوه....

كان لا يزال على حاله مع ذكرياته مغمض العينين، حين تسلل إلى أذنيه صوت أحد المنشدين وهو يقص قصة يونس والحوت على المستمعين، ورسخ في عقله منها بعض الكلمات (يقفز من السفينة في البحر) و (يلتقمه الحوت) و (ظلمة بطن الحوت) و (من المسبحين) و (الحوت يلفظه على شاطئ اليم وهو معافى سليم)؛ شعر بهدوء عجيب وهو يفتح عينيه ويخرج من ذكرياته،

حيييييييي،

لم تزعجه الكلمة هذه المرة بل شعر بها تهز كيانه، الله، الله؛ ها هو الثلج يغمر قلبه، يعقبه شعور بالطمأنينة،

مدددددددد،

بدأت المشاهد تتداخل من حوله، كان ما يزال يحاول أن يتمسك بذاته، يحاول على استحياء أن يستدعي أناته،

قمر...قمر... قمر سيدنا النبي قمر..

ساد عقله الصمت، وغمرت السكينة قلبه وفاضت بالرضا نفسه؛ هدوء تام، لم يعد يسمع معه أي صوت، وفي نعومة بدأ الناس من حوله يتحولون إلى كيانات بيضاء بدون ملامح ولا تفاصيل، كيانات تشع بالضياء، ثم برز له جناحان طار بهما في السماء وسط تلك الرائحة الذكية التي تنعش روحه، وعلى مرمى البصر كان يرى جنة خضراء، كان يرفرف بجناحيه في سعادة وهناء وهو يصعد في السماء، يغوص في بحر من النور ثم يهيم في الصفاء، وعندما عاد كان يضحك وهو يدلف بقدميه إلى حلقة الذكر، والشيخ يأخذ بيده ويوقفه بجواره في وسطها تماماً، كان يضحك تلك الضحكة المميزة، ضحكة المجاذيب...

****

اللاجئ

لفت ذلك الصغير الذي لا يزيد عمره عن الأربعة أعوام الأنظار إليه؛ وهو يجري في سعادة غامرة في محاولة للفرار من مطارده، ذلك الصبي الذي تخطى عمره الثالثة عشر عاماً، والذي كان يجري وراءه بدوره في بطءٍ واضح؛ ربما ليوحي إلى الصغير بأنه يجيد الجري والفرار؛ أو لعله يطيل فترة المرح قبل أن يدركه ويمسك به، لكن الصغير كان واسع الحيلة بالفعل؛ فقد كان يدخل الخيام من حوله دون استئذان، يدخل خيمة أحدهم من بابها فيسير ضحكات ساكنيها بقصر قامته وهو يبذل مجهوداً واضحاً في نقل رجليه بسرعة نسبيه داخل الخيمة، قبل أن يزحف من تحت أستارها بجسده الصغير ويغادرها من الناحية الأخرى، لم يكن حتى يبالي لبنطاله القصير الذي كان على وشك أن ينزلق من حول خصره، أتت حيلته ثمارها؛ فقد توقف الصبي عن مطارته وأخذ يتابعه بعنبيه من بعيد وهو يدخل إلى هذه الخيمة وتلك، وأخيراً وصلت المطاردة إلى نهايتها، إلى حيث يوجد ذلك السور العال والذي ينتهي بكتل من السلك الشائك، توقف الصغير وهو يقفز في مرح معلناً أنه قد فاز بالسباق، لحقه الآخر وهو يبتسم له قبل أن يجلس على الأرض ليلتقط أنفاسه، وهو يومئ له برأسه يخبره أنه قد فاز بالفعل، جلس الصغير بجواره يلتقط أنفاسه بدوره وهو يشعر بالفخر بعد

أن فاز بالسباق، فاجأه الصبي وهو يمسكه ويدغدغ له بطنه ويقول: أنت فزت بالغش كالعادة يا عمر.....

ارتفع صوت عمر وهو يضحك في استمرار دون توقف، لكنه أخيراً طلب من أخيه أن يتوقف وهو يستعطفه ويقول: "توقف يا حسان، على شان خاطري أنا مش قادر خلاص"، توقف حسان من لحظته وقد استرعى انتباهه الأضواء التي بدأت تتلألأ من بعيد، فقد اعتاد المجيء بعد غروب الشمس من كل يوم إلى تلك البقعة من السور ومعه أخوه عمر، حيث يوجد على مرمى البصر تلك الأبنية والتي مع بعد المسافة عنها؛ يراها وكأنها سراب أو كأنها صورة ضبابية من حلم بعيد، وقف حسان ينظر في صمت إلى تلك الأضواء، ثم التفت إلى الخيام حيث بدأ الظلام يزحف عليها ويلتهمها بأسرها إلا من بعض النقاط التي كانت تقاومه على استحياء؛ بفعل تلك اللمبات البدائية التي يضاء فتيلها بواسطة الكيروسين، تبعه عمر وهو يقف بدوره وينظر بعيداً، إلا أنه لم يكن ينظر إلى الأضواء بل إلى ذلك الطريق السريع الذي يمر أمام مخيم اللاجئين، والعربات المسرعة تخطف بصره وهي تمر من أمامهما يميناً ويساراً...

أخرجه من شروده صوت عمر وهو يصفق بيديه الصغيرتين في طفولة؛ ويشير ناحية قطة تتهادى نحوهما من الناحية الأخرى للسور وهو يهتف: لقد جاءت لينا (كانا يسميان القطة لينا) نظر حسان إلى لينا التي اعتادت

المجيء إليهما كل يوم في نفس المكان وفي نفس الموعد تقريباً؛ فيعطيانها بعضاً من طعامهما القليل، نظر عمر إليها بعين الأسف وهو يعتذر منها، فهما لم يكونا يحملان لها أي طعام؛ لقد تأخرت عربات المؤنة اليوم، حتى أنهما لم يأكلا شيئاً منذ الصباح الباكر، وعلى ذكر الطعام فقد نظر عمر إلى حسان -وهو على وشك أن تخور قواه- يخبره أنه جائع جداً، لكن حسان طلب منه أن يكون صبوراً ولا يدع الجوع يتحكم فيه، بل إن عليه أن يحتمل ألمه، وبينما حسان ينظر إلى عمر ليلقي على مسامعه مزيداً من النصائح الأخوية راعه شحوب وجهه ونظرة الفزع التي تطل من عينيه وهو ينظر إلى خارج السور؛ نظر حسان بدوره إلى حيث ينظر أخوه، رأى القطة لينا قد عادت وهي تحمل في فمها الدامي فأراً ألقته أرضاً، وأخذت تلكزه بأقدامها يميناً ويساراً وهو يترنح أمامها، قال حسان في سرعه وهو يخاطب عمر: أغمض عينيك ولا تنظر إليهما، أشاح عمر بوجهه بعيداً وهو يتساءل بصوت عالٍ: لماذا قتلته؟ أجابه حسان في هدوء عجيب: هي لم تقتله بعد، إنها فقط تلهو به قبل أن تأكله، وهنا سمعا نباح كلب عملاق فنظرا إليه وهو يعدو مسرعاً ناحية السور وينقض على القطة التي مائت في غضب قبل أن يهجم عليها الكلب مرة أخرى، وهو ينبح في قوة؛ فرت القطة وهي تحمل فأرها بين أسنانها، وما إن فرت حتى هدأ الكلب فبدا صوت بكاء عمر واضحاً، ألقى حسان بحصاة على الكلب ففر من لحظته، ثم نظر إلى عمر وهو يهدأ من روعه، ويخبره بأنه ليس عليه أن يبكي فهذا هو طبع الحيوانات؛ هم

يأكلون بعضهم البعض عند الشعور بالجوع، إنها شريعة الغاب التي تجعل قويهم يتنمر على الضعيف فيهم، وهم جميعاً يفرون عند الشعور بالخطر؛ إنهم الحيوانات....

كان عمر ينظر إلى حسان في انبهار ويستمع إليه في تركيز جعلاه ينسى جوعه، حتى عندما نهض حسان في حماسة كان يتبعه ببصره في صمت وحسان يشير إلى ناحية الضوء ويقول: في يوم من الأيام سوف أسكن هناك حيث الأضواء، إلى حيث يلمع نجمي في السماء، سينادي باسمي كل لاجئ ويفر منه الأعداء، سيكون سلاحي علمي وقلمي، لن يجروني إلى غابتهم ولن أكون في حياتي قطاً ولا فأراً ولن أكون كلباً نباح، قاطعه عمر وهو يهتف في سعادة ويقول: الأضواء، إنها تأتي نحونا، عقد حسان حاجبيه وهو ينظر إلى عمر ثم نظر في حدة ناحية السماء وشعر بعاصفة من الخوف تعتصر قلبه وهو يرى ذلك الكم الهائل من الأضواء التي انطلقت ناحية المخيم فما كان منه إلا أن قفز يحتضن أخاه ليحميه بجسده، وانفجرت القذائف داخل المعسكر وأبادته عن آخره.....

كان يقف في ثبات، شارد الذهن؛ يجتر ذكريات تلك الساعة التي سبقت القصف، يقف دون حراك أمام ذلك الجدار الزجاجي في مكتبه بالدور السابع من ذلك المبنى الذي تتلألأ فيه الأضواء التي يكاد أن تغمره من كل جانب، كان ينظر إلى الزجاج لا ليشاهد المنظر البديع في الخارج، ولكن

يبدو أنه أكثر تعلقاً بالجدار الزجاجي نفسه؛ الذي تحول بالنسبة إليه شاشة عملاقة تعرض عليه ذكرياته، خصوصاً تفاصيل تلك الساعة التي سبقت قصف المخيم ودكه دكاً، كان يشعر بالدهشة؛ فبعد مرور كل تلك السنين هو ما يزال يتذكر تلك الساعة بكل التفاصيل، يقف ثابتاً دون حراك حتى أنه يبدو من داخل الجدار الزجاجي ومع أناقته اللافتة وكأنه مانيكان خلف زجاج فاترينة محل من محلات ملابس الرجال....

كان يغوص عميقاً داخل بحر ذكرياته حتى أنه لم يشعر بذلك الرجل وهو يدلف إلى المكتب ويتنحنح أكثر من مرة قبل أن يقول: يجب أن نذهب الآن يا سيدي، إن الاجتماع على وشك البدء بالفعل، التفت إليه في هدوء وفي عينيه ما زال يرى أثر الشرود، وعلى خده تجري دمعة لم يستطع أن يحبسها كما فعل بباقي الدموع، مسحها بطرف إصبعه وهو يلتف حول مكتب خشبي أنيق، وحين غادر هو الحجرة أغلق السكرتير باب المكتب خلفه ثم أخرج منديلاً من جيبه وهو يمسح ذرات الغبار التي علقت بتلك اليافطة الصغيرة بجوار الباب، تلك اليافطة الذهبية والمكتوب عليها باللغتين العربية والإنجليزية (السيد عمر رئيس المفوضية الدولية لشؤون اللاجئين)....

****

العدو الآن

هيا، هيا، أسرع يا حسن أسرع، تستطيع أن تفعلها، كان علاء يقف على حافة المعدية وهو يمد يده لصديقه حسن الذي وصل متأخراً إلى الرصيف كعادته، إنها الوسيلة الوحيدة التي تتيح لهما العبور من القرية على ضفة النيل إلى الضفة الأخرى منه، حيث المدينة والمواصلات الحديثة التي تتيح لهما الذهاب إلى الجامعة... قفز حسن قفزة قوية سمحت له أن يعوض المسافة التي قطعتها المعدية في الماء، وعندما وضع قدمه اليمنى على حافة المعدية كادت أن تنزلق بسبب حذائه الكلاسيكي، لولا يد علاء التي أمسكت به وهي تجذبه إلى الداخل، ضحك الصديقان ضحكات متواصلة ربما بفعل الأدرينالين، كما ضحك معهم بعض الركاب الآخرين، توجها إلى حيث توجد المقاعد وجلسا متقابلين تماماً كما يفعلان كل صباح، حيث يوجد عدد قليل نسبياً يعبر ضفة النيل إلى الضفة الأخرى في هذا الوقت المبكر، ربما هم نفس الأشخاص كل يوم لدرجة أنهم قد حفظوا وجوه بعضهم البعض..... وكعادته كان حسن يتفرس الوجوه من حوله وهو يميل على علاء ليلقي على مسامعه ببعض التعليقات المرحة، انظر إلى الطفل هناك من الواضح أنه يشعر بالجوع لكن أمه مندمجة في حديث لا ينتهي مع صديقتها، الطفل على وشك أن ينطق ويطلب من أمه أن يعود، ثم أطلق

ضحكة عالية جعلت البعض ينظر إليه وعلاء يسأله بصوت خافض: يعود إلى أين؟ نظر إليه حسن وقد كست وجهه الصرامة، ثم ما لبث أن انفجر في الضحك وهو يقول بصوت عالٍ: البيت طبعاً، يعود إلى البيت، ما الذي جال في خاطرك؟ ضحك علاء ضحكة رصينة، ثم ساد الصمت وهما يستمتعان بنسمات الصباح فوق سطح النيل؛ ويتطلعان إلى مشهد الماء الذي يخلب الألباب.... نظر علاء إلى حسن وبدأ هو الكلام على غير العادة وهو يقول: انظر على يسارك، وأشار بيده وهو يكمل كلامه: إنها المرة الأولى التي أرى فيها هذا الرجل يركب معنا؛ نظر حسن إلى حيث أشار له علاء نظرة الخبير وهو يتفحص الرجل، وبعد مرور دقيقة كاملة قال: يبدو من مظهره أنه موظف حكومي بسيط؛ انظر إلى ملابسه التي لم تلامس المكواة ربما منذ سنتين، وشعره الأشعث الذي لم يلامس الفرشاة منذ شهر، ثم ضحك وهو يقول أنّه موظف حكومي بسيط ولا ريب.....

لكن علاء كان يتطلع إلى الرجل في جدية واضحة؛ وقد لفت نظره الشنطة التي يضعها على قدميه وهو يطبق يديه عليها في قوة، عقد علاء حاجبيها وقد بدت عليه الجدية بدوره؛ وهو ينظر إلى الرجل الذي بدأ يتلفت حوله في قلق... مال علاء على حسن وهو يقول: ماذا هناك يا ترى؟ فهو يبدو عليه التوتر!! سمع حسن صوت غريب فنظر إلى علاء وهو يسأله إن كان سمع الصوت بدوره، لكن علاء كان مشغولاً بالنظر إلى شيء ما يطفو فوق سطح

الماء، وحسن يقول: لقد سمعت صوت سقوط شيء في الماء، هل سمعته أنت أيضاً؟ نظر إليه علاء وهو يقول: ليس شيء بل شخص قفز من المعدية في النيل، أشار علاء بيده؛ نظر حسن إلى حيث يشير علاء ورأى ما يشبه الجثة التي ترتدي قميصاً أبيض وهي تطفو فوق سطح الماء، نهض حسن وعلاء وهما يصرخان على سائق المعدية ويطلبان منه أن يعود أدراجه، ثم حدث ذلك الشيء العجيب؛ فالشخص الطافي فوق سطح الماء لم يكن جثة بعد؛ لقد تحرك فجأة وهو يعوم بمهارة عالية محاولاً الوصول إلى الرصيف..... وفجأة جرى علاء ناحية الرجل الجالس في سرعة، ثم انحنى يفتش تحت المقعد الذي يجاوره، اندهش الجميع وعلاء يخرج تلك شنطة بلاستيكية سوداء من أسفل المقعد، ثم يجري بها في لهفة إلى حافة المعدية، ويلقيها بكل قوته بعيداً، سقطت الشنطة في الماء ثم حدث ذلك الشيء الذي بث في قلوب الجميع الرعب؛ لقد انفجرت في الماء، وبقوة.... ترك علاء جسده يسقط على أقرب مقعد إليه والجميع ينظر إليه في ريبة، تقدم حسن من علاء وهو يقول: لقد أنقذتنا جميعاً، لكن كيف علمت بأمر القنبلة؟ بل وكيف حددت مكانها؟ نظر إليه علاء في صمت ثم التفت إلى الرجل الغريب الذي كان يبدو على وجهه الرعب.....

اكتظ الرصيف - حيث عادت المعدية أدراجها مرة أخرى - برجال الأمن الذين لم يسمحوا لأحد من الركاب بالمغادرة، بل كانوا يأخذون أقوالهم وهم

يكررون نفس الأسئلة على مسامع الجميع، وبعد أن فرغ حسن من الإدلاء بأقواله جلس بجوار علاء الذي لم يتخلص بعد من آثار الصدمة، قال حسن بصوت خافت: لقد سمعتك وأنت تخبرهم أنك رأيت ذلك الشخص صاحب القميص الأبيض وهو يضع الشنطة تحت المقعد ثم يقفز في الماء، نظر إليه علاء في شرود ولم ينطق بكلمة، وحسن يقول: علاء، لقد كنت جالس معك، من المستحيل أن تكون قد رأيت ذلك الرجل أو الشنطة، وقبل أن ينطق علاء بحرف واحد وقف ذلك الرجل الغريب أمامهما وهو يمد يده إلى علاء ويقول: أشكرك يا بني لولاك لكنت ميتاً الآن، نظر إليه علاء في دهشة وكذلك فعل حسن الذي تمتم: القنبلة كانت تقصدك أنت إذاً، قال علاء في هدوء: بالطبع يا حسن؛ لقد وضعها ذلك الرجل بالقرب منه ليتأكد من موته عندما تنفجر، ابتسم الرجل وهو يقول: أنا الدكتور/ سيف طاهر، باحث وعالم كيميائي، نظر علاء إلى حسن وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى فهم منها حسن أن علاء يقول له هو ليس موظف حكومي بسيط؛ ابتسم علاء بدوره؛ نظر إليهما دكتور سيف باستغراب لكنه لم ينطق بكلمة.....

كانت الشمس على وشك المغيب عندما انتهت الإجراءات، وأخيراً سمح رجال الأمن للجميع بالانصراف على أن يتركوا بياناتهم؛ لربما يريدون سماع أقوال أحدهم مرة أخرى، وبينما دكتور سيف يسير وحيداً في اتجاه

القرية لحق به علاء وحسن، عرض عليه علاء في كرم بادٍ أن يستضيفه في بيته حتى الصباح، وحسن يقول في ثقة واضحة: أنت طبعاً غريب عن قريتنا، ضحك دكتور سيف وهو يقول: لا لست غريباً يا بني فأنا من عائلة تنحدر جذورها من هذه القرية، حتى أن أمي ما زالت تعيش هنا مع أخي الأصغر وأسرته، ابتسم علاء ساخراً من سوء فطنة حسن اليوم؛ مما جعل حسن يمط شفتيه، لكن دكتور سيف توقف فجأة وهو ينظر إلى علاء ويقول: لكن كيف علمت بأمر القنبلة؟ نظر علاء إلى الأرض ثم رفع راسه ينظر إليه في تردد قبل أن يقول: أعتقد أنك لن تصدقني لو أخبرتك، لكن دكتور سيف طلب منه أن يخبره، فقال علاء: سأخبركما على أي حال، بينما كنت أصرخ أنا وحسن على سائق المعدية ليعود أدراجه لعلنا ننقذ الرجل، فجأة رأيت تلك الصورة تظهر أمام وجهي، رأيت رجلاً يرتدي قميصاً أبيض يفتح شنطة بلاستيكية ويمد يده ليضبط مؤقت شيء ما يشبه القنبلة، ثم يضعها أسفل المقعد الذي كان يجلس عليه قبل أن يقفز في الماء، نظر إليه الدكتور في دهشة حقيقة وفغر حسن فاه، عاد علاء ينظر إلى الأرض قبل أن يرفع رأسه مرة أخرى وهو يقول: أحياناً عندما يكون هناك خطر ما أشعر بقبضة تعتصر صدري، أنا لم أخبر أحداً بهذا الأمر من قبل، ثم قال في حيرة: لكنها المرة الأولى التي يحدث فيها مثل ذلك الأمر، تنهد حسن وهو يقول: حمداً لله يا شيخ علاء؛ فلولا تلك الصورة التي رأيتها في خيالك ما بقي أحد منا على قيد الحياة... ما اسم عائلتك يا بني؟

فاجأ دكتور سيف علاء بهذا السؤال، فأجاب الأخير في سرعة: عائلة الشيخ عبد الصمد، ابتسم دكتور سيف قبل أن يعود ويسأله: وما اسم أبيك؟ أجابه علاء خضر، ازدادت ابتسامة دكتور سيف ثم ما لبثت أن تحولت إلى ضحكة عالية وحسن وعلاء ينظران إليه في دهشة..... لقد كنت أحفظ القرآن مع جدك، قالها الدكتور قبل أن يتنهد ثم يعود ويقول: همم كانت أيام!! لقد تغيرت الأحوال وتغير الناس، هل تعلم يا بني؟ لقد كنت أنا وأبوك أعز صديقين في مرحلة الطفولة، نظر إلى علاء وهو يقول: لا تستغرب ما يحدث معك يا بني فجدك كانت له كرامات معجزات، ويبدو أنك قد ورثت بعضاً منها؛ تهللت أسارير علاء وهو يقول في فرح: إن أمي تلقي على مسامعي نفس الكلام باستمرار، لكن حسن نظر فجأة إلى دكتور سيف وبدا كأنه تذكر شيئاً هاماً وهو يعقد حاجبيه ويسأله: لكن لماذا أراد قتلك؟ نظر إليه علاء بدوره وهو يقول: نعم لماذا؟

تطلع دكتور سيف إلى الأفق وهو يقول في شرود: منذ ثلاثة أعوام وأنا أعمل على صيغة كيميائية من شأنها أن تنقي الهواء من عوادم المصانع والسيارات، سأله حسن في لهفة: تنقيه إلى أي درجة؟ لمعت عين دكتور سيف وإن بقي على شروده وهو يقول: سوف يصبح الهواء نقياً تماماً، لكن علاء قطع شروده وهو يسأله: لكنها تركيبة كيميائية وربما تكون ضارة على صحة الإنسان، نظر إليه في إعجاب وهو يقول: هذا هو الجزء الذي

كنت أعمل عليه طوال السنتين الماضيين؛ حتى توصلت إلى صيغة آمنة على صحة الإنسان، زفر حسن في ضيق وهو يقول: لكن لماذا يريدون قتلك؟ إن ما تفعله سوف يفيد الناس جميعاً، نظر إليه علاء وهو يقول: وسيضر بكل شركات الأدوية المحلية والعالمية، نظر إليه دكتور سيف وهو يأمن على كلامه ويقول: بالضبط، ولذلك ومنذ أسبوعين مضيا شعرت بأن أحدهم يراقبني، بل ويتجسس على الموبايل واللاب توب؛ كأنه يفتش عن تلك الصيغة، وعندما لم يجدها بدأت تصلني رسائل تهديد، كانت كلها تحمل نفس الصيغة (توقف وإلا قتلناك) سأله علاء في سرعة: بأي لغة؟ ابتسم وهو يجيبه: الإنجليزية بالطبع... قال حسن في سرعة: ربما هي وكالة المخابرات الأمريكية أو الصينية، قال علاء: أو الإسرائيلية، فهم لن يقبلوا أن نكون بصحة جيدة أبداً، نظر إليهما دكتور سيف وهو يمط شفتيه ويقول: ربما، على العموم لقد تركت شقتي في القاهرة وجئت أختبئ هنا في القرية، سمعوا جميعاً صوت موبايل يرن، وقبل أن ينظر علاء أو حسن إلى موبايله كان دكتور سيف قد فتح الشنطة وأخرج موبايله وهو يفتحه ويضعه على أذنه في لهفة، ابتسم دكتور سيف في سعادة وهو يستمع إلى محدثه، لكنه لم يلبث أن زوى ما بين حاجبيه وهو يقول: هل أنت متأكد؟....

مر ما يقرب من خمسة دقائق بعد أن أغلق دكتور سيف الموبايل وهو ما زال على صمته، وإن اكتسى وجهه بحزن عميق؛ مما جعل علاء وحسن يصمتان هما أيضاً، لكنه نظر إليهما والحزن يطل من عينيه ويقول بصوت خرج مبحوحاً: لم تكن المخابرات الأمريكية، لم تكن الصينية أو الإسرائيلية، رفعا أعينهما وهما ينظران إليه وهو يقول: لقد قبض رجال الأمن على الرجل صاحب القميص الأبيض، من حاول قتلي لم يكن سوى صاحب أكبر شركة لأدوية القلب والصدر في مصر، شهق علاء وكذلك فعل حسن، نظر إليهما في انكسار وهو يقول: يبدو أن الذي تغير الآن ليست الأحوال فقط، بل لقد تغير العدو أيضاً، حتى أننا قد أصبحنا أعداء أنفسنا، حمل صوته حنان وقلق الأب على أبنائه وهو يسألهما: ما نوع دراستكم؟؟ أجاباه: نحن في آخر سنة في كلية الطب، وابتسما وهما يقولان في صوت واحد: نحن على وشك أن نصبح طبيبا قلب وصدر....

****

طريق الخير

هو لا يزال على وقفته، ثابت أمام واجهة محل لملابس الأطفال، ينظر في شرود إلى الملابس الجميلة الغالية الثمن بالداخل، وكأنه تحول إلى أحد التماثيل المخصصة لعرض الملابس، لولا أنه كان يقف خارج المحل وليس بداخله، ولولا ما كان يرتديه من ملابس قديمة ممزقة؛ لا تتناسب والمعروضات، وبين الحين والآخر نجده ينظر إلى ملابسه، ثم يعود وينظر إلى داخل المحل؛ وكأنما كان يقارن بين ما يرتديه بالفعل وبين ما يتمنى أن يرتديه.... كان شارد الذهن يتذكر كيف كان يعيش في بذخ وكل طلباته مجابة، يتذكر كيف كان يلبس أفخم الثياب ويأكل كل ما تشتهي وتلذ الأنفس، يتذكر كيف كان محبوباً من أصحابه جميعاً، بل وكيف كانوا يلتفون حوله وهم يتمنون رضاه، حتى توفي والده في ذلك الحادث الأليم، وبالرغم من مرور عامين بالفعل على الحادث إلا أنه ما يزال يذكر كل شيء بالتفصيل، لقد توفي والده في حادث سيارة، حيث كان يركب معه هو وأمه، لكنهما نجيا من الحادثة بأعجوبة... يتذكر حين عرف سبب شرود ذهن والده وقت الحادث؛ إن والده هو وشريكه في العمل قد أخذا قرضاً كبيراً من البنك ليدخلا في مشروعٍ ما، لكن المشروع باء بالفشل وخسرا أموال القرض، ثم تذكر ما فعله شريك والده بعدها، وكيف زور بعض الأوراق

ليتنصل من مسؤوليته عن القرض؛ مما جعل البنك يحجز على الجزء الخاص بأموال والده في الشركة فقط.....

وكما انقلبت السيارة بهم رأساً على عقب انقلبت حياته هو وأمه؛ أصبحا وقد أعلن على الملأ فقرهما، أصبحا لا يجدان الطعام ولا الثياب؛ مما اضطرهما إلى الانتقال إلى أحد المساكن الشعبية في ضواحي المدينة، ثم عملت أمه بائعة في متجر صغير لكي تتدبر لهما المال، وبعد السيارة والسائق الخاص كان يذهب إلى المدرسة سيرا على الأقدام، وهو يرتدي ملابس قديمة وحذاء ممزق؛ مما كان يثير سخرية بعض زملائه منه، نفس زملاء الأمس الذين كانوا يلتفون حوله حين كان واحداً من الأغنياء؛ غرق في دموعه كما غرق في ذكرياته، لكنه فجأة أطلق شهقة رعب؛ وواجهة المحل الزجاجية تعكس من خلف صورته صورة رجل يرتدي جلباب أبيض؛ نظر خلفه في سرعة لكنه لم يجد أحداً، وعندما التفت ناحية الزجاج مرة أخرى لم يرَ انعكاس أي صورة إلا صورته هو، تنهد في ارتياح لكنه ما لبث أن سمع صوت يشبه صوت أبيه يدوي في عقله وهو يقول: لا تبكي يا عامر وتذكر ما كنت أقوله لك دائماً، الإنسان بعمله وليس بما يرتديه أو يأكله، تذكر أن الغنى الحقيقي يكمن في عمل الخير... لم يتمالك نفسه وهو يبتسم في فرح لسماعه صوت أبيه؛ ثم انتبه إلى أن أحد البائعين في داخل المحل ينظر إليه في دهشة واضحة؛ فنظر إلى الأرض في خجل ثم أسرع يغادر المكان.....

كان يسير وهو ما يزال شارد الذهن يفكر فيما حدث للتو ويتمتم بينه وبين نفسه: هل عليّ أن أذكر الأمر لأمي؟ ثم مل لبث أن قال: لا لن أفعل؛ سيجعلها ذلك تتذكره وتعود إلى البكاء في كل ليلة كما كانت تفعل من قبل، كانت تبكي في صمت وهي تظن أنني لا أسمعها، كم أنت عظيمة يا أمي!! إن ما حدث كله لم يصبك باليأس أبداً، تذكر كلامها حين كان يسألها لماذا أصبحوا فقراء بعد أن كانوا أغنياء، ولماذا يوجد أغنياء وفقراء من الأساس؟ تذكر كلامها حين قالت: إنها حكمة الله التي لم تكن تدركها هي نفسها من قبل، الله يختبر الناس بالغنى حيناً وبالفقر حيناً؛ ليرى ماذا سيفعل الإنسان الفقير وماذا سيفعل الغني! هل سيكون الفقير مع فقره أميناً وصادقاً ومحباً للخير أم سيكون كارهاً حاقداً على الناس من حوله؟ والغني ماذا سيفعل بغناه؟ هل سيتكبر على الفقير ويظلمه أم يعطف عليه ويعطيه من ماله؟ ثم قالت: نحن لا نملك أن نولد فقراء أو أغنياء لكننا نملك أن نختار في أي جانب نكون؛ في جانب الخير أم الشر؛ نملك أن نختار الصدق من الكذب والأمانة من الخيانة، نملك أن نجتهد في الدراسة ونصبح أغنياء بعلمنا وعملنا وبالخير الذي في قلوبنا....

عبر الطريق الرئيسي والذي ينتقل منه إلى ذلك الطريق الفرعي؛ والذي بدوره ينقله إلى ضواحي المدينة حيث يوجد مسكنه الجديد، وبينما كان يسلك ذلك الجزء من الطريق الفرعي حيث لا يوجد إنسان إلا فيما ندر،

وجد سيارة مصطدمة بشجرة كبيرة، والسيارة مشتعلة من الأسفل ولا يوجد أي مخلوق حولها؛ وقف مذهولاً وهو لا يدري ماذا يفعل!! تقدم قليلاً من السيارة وهو يجر قدميه بخوف وحذر؛ رأى في المقعد الأمامي للسيارة رجلاً فاقد الوعي والدم يسيل من جبهته؛ تذكر الحادث وموت والده فجرى ناحية السيارة دون إرادة منه، فتح الباب الأمامي الخاص بالسائق، ثم فك حزام الأمان من حول وسط الرجل، كان يحاول أن يسحب الرجل خارج السيارة قبل أن تنفجر، كان يحاول أن يفعل ذلك بكل ما أوتي من قوة لكنه لم يستطع، وقف يلهث وصدره يعلو ويهبط في شدة؛ لقد كان ما يزال صغيراً لم يقوَ جسده بعد، فأخذ يصرخ ويصرخ وهو يحاول أن ينقز الرجل، كانت السيارة على وشك الانفجار والنار تنتشر فيها من كل الاتجاهات؛ لكنه مع ذلك لم يترك الرجل فقد كان يرى فيه أباه الذي لم يستطع أن ينقذه، كانت السيارة على وشك الانفجار بالفعل حين ظهر ذلك الرجل الذي يرتدي الجلباب الأبيض وهو يزيحه برفق؛ ثم يحمل الرجل الفاقد الوعي ويجري به بعيداً عن السيارة، كان الرجل المصاب يطبق يده في قوة على شنطة ما فسقطت منه، أخذها عامر وهو يجري ليلحق بالرجل، وعندما وصل إليه كان يضع الرجل المصاب على الأرض، ثم حانت منه التفاته إلى عامر وهو يبتسم له في حب، لقد كان أبوه!! وانفجرت السيارة وأطاحت بعامر مغشياً عليه هو الآخر.....

لم يدرِ عامر كم مر عليه من الوقت وهو فاقد الوعي إلا أنه عندما استيقظ لم يجد أحداً حوله فقد اختفى أبوه، جلس عامر على الأرض وهو يلتقط أنفاسه ثم تذكر الرجل المصاب، قام في عجلة وتحرك ناحية الرجل ليطمئن عليه، كان الرجل يرقد على الأرض فاقد الوعي؛ مما جعل عامر يحاول أن ينعشه كما تعلم في المدرسة، لكن الرجل ظل على حاله؛ جرى عامر عائداً ناحية الطريق العام لعله يجد من يساعده، أشار لكل السيارات التي قطعت الطريق أمامه لكن لم تتوقف أي منها، كان يصرخ في هستيرية وهو يطلب المساعدة حين مرت سيارة من سيارات الأمن أمامه، أشار للسيارة في لهفة واضحة مما جعل سائقها يقف له على الفور، وحين أخبره عامر بما حدث ذهب معه رجل الأمن مسرعاً إلى حيث الرجل المصاب، تعاون عامر مع رجل الأمن على نقله إلى داخل السيارة، طلب رجل الأمن من عامر أن يركب معه ثم توجه إلى أقرب مستشفى، أخبره رجل الأمن أنه قد أخذه معه حتى يتسنى له أن يسمع كل ما حدث بالتفصيل في أثناء الطريق، لكن عامر أخبره أن أمه سوف تشعر بالقلق عليه فوعده أنه سيوصله بعدها إلى مسكنه، لكن عامر قال له: لا أستطيع أن أبقى معك كل هذه الوقت دون أن علم أمي؛ فطلب رجل الأمن منه أن يعطيه رقم المنزل ليطمئنها عليه فأعطاه إياه.....

وفي المستشفى، وقف عامر يحكي لهم ما حدث، ثم وصلت أمه إلى هناك وهي تسأل أحدهم عليه في قلق؛ فأشار لها ناحيته، وعندما رأته جرت إليه وهي تحتضنه في لهفة، كانت الأم تقف بينهم مبتسمة والجميع يقولون أن ابنها بطل حقيقي؛ مما جعلها تشعر بالفخر، وبينما يقفون هناك وهم يتسامرون جاء أحد المرضين وهو يسأل عن الصبي الذي أنقذ الرجل، أشار أحدهم ناحية عامر؛ تقدم الرجل وهو يطلب منه أن يذهب إلى غرفة الرجل المصاب فهو يطلبه في إلحاح، ذهب عامر هو وأمه إلى غرفة الرجل، طرق عامر الباب في استئذان، سمعا صوتاً يأتي من الداخل يطلب من الطارق الدخول، وعندما دخلا الغرفة كان هو ممد على الفراش وقد غطى رأسه وقدمه اليمنى الجبس، كما كانت هناك بعض الضمادات هنا وهناك، وعدد من الخراطيم تدخل وتخرج من جسده، وقبل أن يقول عامر أو أمه أي شيء سأله الرجل في لهفة: أين الشنطة التي كانت في السيارة؟ أعطاه عامر الشنطة التي لم يتركها من يده طول الوقت، نظر الرجل إلى قفل الشنطة ليطمئن إلى أن أحدهم لم يحاول فتحها؛ وعندما اطمأن نظر إلى عامر مبتسماً وهو يسأله في ود: ما اسمك يا بني؟ أجابته الأم هذه المرة: عامر، اسمه عامر، كان الرجل يهم بمواصلة الكلام لكن عدد من أفراد أسرته دخل الغرفة على عجل، تنحت الأم وهي تجذب عامر جانباً، ومما سمعا من حديث الرجل مع أسرته علما حقيقة شخصيته؛ فهو رجل ثري وصاحب أكبر مصانع للملابس في البلاد، كانت الأم تهم بالمغادرة هي وعامر حين فتح الرجل الشنطة قبل أن

ينظر ناحية عامر وهو ينادي عليه، تركت الأم يد عامر ليذهب إلى الرجل، اقترب عامر من الفراش والرجل يخبره بذلك الأمر المدهش؛ إن الشنطة تحتوي على عشرة ملايين دولار، وأن نصيب عامر منها وفقاً للقانون هو عشرة في المائة، أي ما يعادل المليون دولار؛ شهق الجميع عنما سمعوا كلمة المليون دولار؛ جرت الأم ناحية ابنها تحتضنه في فرحة.....

عد الرجل المليون دولار ثم مد يده يعطيه للأم؛ مدت الأم يدها إليه تأخذهم منه بلهفة وهي تشعر بأن جميع مشاكلهم قد حلت، خرجت الأم ومعها عامر خارج غرفة الرجل، عادا إلى حيث كانوا يقفون يتسامرون وعلى وجه الأم ابتسامة فرح واضحة؛ مما جعل الواقفين جميعاً يسألونها عما حدث، أخبرتهم الأم بأمر المليون دولار ففرحوا لهما جميعاً، لكن عامر بدا شارد الذهن وصوت أبيه يتردد داخل عقله وهو يقول: إن الغنى الحقيقي يكمن في عمل الخير؛ ابتسم عامر وهو يمد يده ليأخذ المال من أمه، ثم قصد غرفة الرجل المصاب وأعاد إليه المليون دولار؛ نظر إليه الرجل في حيرة وكذلك فعل أفراد أسرته جميعاً، وعندما سأله الرجل لماذا أعدت المال؟ أجابه عامر: أنه يريد أن يستثمر ذلك المال معه، نظر إليه الرجل في حيرة قبل أن يبتسم في إعجاب وقد فطن إلى الأمر، دخلت الأم في هذه اللحظة والرجل يسأله: أين تريد أن تستثمره يا عامر؟ أجابه عامر: في مصنع لملابس الأطفال، على أن يقوموا بتوزيع الملابس على الفقراء والمحتاجين بالمجان،

نظر الرجل إلى حذاء عامر الممزق، ثم قال: ومصنع للأحذية بالمجان أيضاً، على أن يكونا مفتوحان على الدوام لوجه الله، كان الجميع ينظر إلى عامر نظرة إعجاب وقلب أمه يملؤه الفخر الحقيقي، لكن أحدهم لم يرَ أباه وهو يظهر مرة أخرى مرتدياً ذلك الجلباب الأبيض وينظر إلى عامر وعلى وجهه ابتسامة سرور.....

****

تحضير روح كورونا

زفر عماد في قوة قبل أن يمد يده ليرن جرس الباب، لكنه لم يفعل؛ ويد صديقه خالد ترتفع في سرعة لتحول بينه وبين الجرس، نظر عماد في دهشة إلى خالد والأخير يسأله: هل أنت واثق من الأمر؟ أجابه عماد في آلية: تمام الثقة، ثم ابتسم وهو ينظر إليه ويسأله في ارتباك واضح: واثق من إيه بالضبط؟ لكن خالد رد على سؤاله بسؤال آخر: هل من الممكن أن يحدث ذلك فعلاً؟ ثم تنهد قبل أن يستطرد: ماذا نفعل هنا بالضبط؟ لماذا جئنا إلى هذا المكان من الأساس؟ همَّ عماد بالإجابة عليه لكن الباب فتح فجأة، ظهر على عتبته شخص نحيف وهو يشير إليهما بيده التي يغطيها قفاز أبيض يدعوهم إلى الدخول، وعلى وجهه ابتسامة زلقة، كاد قلباهما أن يتوقفا من شدة المفاجأة، لكنهما تمالكا نفسيهما وهما يجران قدميهما ويعبران الباب.. اقتادهما النحيف إلى صالة واسعة وهو يشير إليهما بالجلوس وعلى وجهه نفس الابتسامة الزلقة، التصق خالد بعماد وهما يجلسان على تلك الأريكة الصغيرة، نظر خالد حوله في ريبة؛ وهو يتفرس وجوه الجالسين، كان هناك عدد قليل من الحضور، مال خالد على أذن عماد وهو يهمس له: أما زلت واثقاً أيها العبقري؟ ابتسم عماد ابتسامة باهتة وهو يحيي أحد الجالسين أمامه والذي كان ينظر إليه نظرة فاحصة بدوره، ثم التفت إلى

خالد وهو يهمس له: في الحقيقة، أنا لم أعد واثقاً من أي شيء على الإطلاق....

خيّل لخالد أن أحدهم قد سمع ما كانا يهمسان به هو وعماد؛ لذلك لم يندهش حين توجه إليهم ذلك الشخص بالكلام وهو يقول: مرحباً بكما، أنا وليد، وكأن وليد قد فتح باباً للتعارف دلفوا منه جميعاً وهم يتعارفون؛ خفف ذلك من شعور الريبة لدى خالد، لكن أحدهم ويدعى مراد لم يتمالك نفسه وهو يسألهم فجأة وفي حدة واضحة: هل من الممكن أن يحدث ذلك فعلاً؟ لكن أحدهم لم يجِبه وهم يتطلعون إليه في شك واضح؛ مما جعله يستطرد قائلاً: أرأيتم؟! أنتم لا تصدقون الأمر بدوركم... حاول واحد آخر أن يخفف من شدة التوتر وهو يحول دفة الحديث وهو ويسأل الجميع: لكن كيف علمتم بأمر هذه الجلسة؟ أنا عن نفسي قد تمت دعوتي من قبل الشيخ، فوجئ الحضور جميعاً بأنهم قد تمت دعوتهم بنفس الطريقة، وخالد ينظر إليهم بوجه تعلوه الدهشة وقد فطن إلى أمر ما؛ فمن خلال كلامهم فهم أنهم جميعاً يعرفون الشيخ معرفة شخصية، ما عدا هو وعماد، لكنه لم يعلق على هذا الأمر وإن بقي يشغل باله، انخرط الجميع في حديث عن قدرة الشيخ على تحضير الأرواح! وكيف أنهم قد رأوا ذلك بأم أعينهم، لكن مراد عاد يتكلم فجأة وهو يقول: لكن معظم علماء الفيروسات يقولون بأنها كائنات غير حية؛ فهي لا تستطيع أن تتكاثر أو

تنمو، استوقفه ذلك الجالس في آخر الصالة وهو يقول: وأنت تصدقهم؟ ثم استطرد: بالطبع هي كائنات حية؛ وإلا كيف تتعرف على الإنسان بل وكيف تحدد الخلايا التي سوف تصيبها؟ رد واحد آخر: هي فعلاً ليست حية؛ ولذلك فهي تسطوا على خلايا عائل ما؛ لكي تستطيع أن تتكاثر وتنمو، وهنا قال مراد في سرعة: كيف سيستطيع الشيخ تحضير روح فيروس كورونا؟! وأسقط في يد الجميع.....

غلفهم الصمت والتفت حولهم الريبة وانعقد حولهم حبل الشك، قبل أن يقوم واحدهم تلو الآخر وهم يهمون بالمغادرة، لكن الرجل النحيف ظهر مرة أخرى وهو يقول بصوت حاد: لقد حضر الشيخ؛ نظر الجميع إلى الشيخ الذي دخل عليهم وهو يحييهم فرداً فرداً، وعندما جاء الدور على خالد ابتسم له وخالد ينظر إليه في دهشة؛ فهو لم يكن سوى رجل قصير القامة ممتلئ الجسد ليس له لحية ولا شارب يرتدي قميصاً وبنطالاً؛ مما جعل خالد يتمتم بينه وبين نفسه: لماذا ينادونه بالشيخ إذا؟! فتح الشيخ أحد الأبواب التي تطل على الصالة مباشرة وهو يدعوهم إلى الدخول... وفي الداخل كانت توجد طاولة مستديرة يحيط بها تسع كراسي، انتبه خالد إلى أن عدد الحضور ومعهم والشيخ والرجل النحيف ثمانية فقط، هم بسؤال الشيخ عن الكرسي التاسع لكن النحيف دخل عليهم الحجرة وهو يوزع عليهم كمامات وجوانتيات تشبه ذلك الذي يرتديه هو، ثم طلب منهم جميعاً أن

يرتدوهم، ارتدى النحيف كمامته ثم غادر الغرفة مرة أخرى، دعا الشيخ الجميع إلى الجلوس حول الطاولة، وعندما عاد النحيف لم يكن بمفرده هذه المرة؛ لقد كان معه شخص آخر يرتدي القفاز، كما كان يرتدي الكمامة ولكن على الوجه الآخر، فهم الجميع معنى ذلك من قبل حتى أن يسعل ذلك الرجل بشدة ويبدو عليه في وضوح أنه يتنفس في صعوبة؛ لقد كان مريض من مرضى كورونا.....

جلس الجميع والشيخ يخبرهم ألا يشعروا بالقلق؛ فذلك المريض قد تجاوز المرحلة الحرجة بالفعل، ثم أخبرهم بما عليهم فعله، أغلق النحيف الباب وأطفأ الأنوار، وهنا شبك كل واحد منهم يده في يد من يجاوره وأغمضوا أعينهم تماماً كما أخبرهم الشيخ، وبدأ الشيخ يتكلم محدثاً روح فيروس كورونا الذي يوجد بداخل ذلك المريض، كان يتحدث بصوتٍ عميقٍ، وهو يخبرها بأن عليها أن تثق به ولا تخاف، فقط تحضر وتتحدث إليهم، لكن لم يحدث شيء ولم تحضر أي روح، مر الوقت وفتح الشيخ عينيه وهو يخبرهم أن التجربة ربما قد بائت بالفشل، وهنا تحدث مراد وهو يقول: تمام كما قلت لكم، هي كائنات غير حية، وصمت الجميع.... لكن خالد قال في تردد: ماذا لو كانت الفيروسات تتحرك بعقل جماعي؟ أعني أن هناك روح وعقل واحد هو من يتحكم في هذا العدد الكبير منهم، وهو من يوجههم جميعاً، سأله أحدهم: أتقصد مثل ملكة النحل؟ تمتم خالد: مثلاً، قال

الشيخ: هي فكرة غريبة لكنها تفسر الكثير من سلوكيات فيروس كورونا بالذات، طلب منهم الشيخ أن يشبكوا أيديهم وأن يغمضوا أعينهم مرة أخرى، وفي هذه المرة تكلم الشيخ ولكن بلغة عجيبة لم يفهم أحدهم منها شيء، وخالد يعقد حاجبيه في شدة، شعر الجميع بالرعب؛ لقد بدا وكأن أحدهم يدق فوق الطاولة دقات منتظمة، بدأت خافتة ثم ما لبثت أن ارتفعت وازدادت سرعتها وفتح خالد عينيه لسبب ما.....

كان يغطي رؤوسهم جميعاً شيء يشبه قبة سوداء، وتنتشر فيهه بعض النقاط المضيئة مما جعلها تشبه السماء بنجومها ليلاً، كما كان هناك ذلك الشيء الذي يشبه مخروطاً من النور، ينبثق من العدم بحيث تقابل طرفه الواسعة وجه خالد، وفجأة خرج كائن نوراني من طرف المخروط هذا ووقف على الطاولة أمام خالد، مد الكائن يده فاخترقت صدر خالد وهو ما جعل خالد يفتح عينيه من الأساس ويرى المشهد كله، وعندما أخرج الكائن يده من صدر خالد كانت تحمل كرة شفافة وإن كان لونها يميل إلى الزرقة، الغريب أن خالد لم يشعر بالخوف لكنه شعر بالدهشة... رفع الكائن النوراني الكرة عالياً؛ فخرج منها نور ضرب صدر ذلك المريض وأضاءه، ثم بدا لخالد أن صدر ذلك المريض قد أصبح شفافاً؛ لدرجة أنه أصبح يستطيع رؤية ما بداخله، أصبح يرى جهازه التنفسي كله، تمتم خالد في نفسه: لكن ما هذه النقاط السوداء على رئتيه؟ بدا لخالد أنه قد عرف الإجابة والنور يجذبها

خارج الجسد، ثم يدخلها داخل الكرة الزرقاء نفسها، تمتم خالد: آه هي الفيروسات إذا، ومع خروج آخر واحدة من تلك النقاط السوداء ظهر ظل أسود مخيف؛ شهق خالد فزعاً عندما رآه يدخل جسد المريض ويطرد شعاع النور منه؛ وهنا اختفى الكائن النوراني ومعه الكرة، كما اختفى مخروط النور وإن بقيت تلك القبة السوداء التي تشبه السماء فوق الرؤوس.... وتحدث المريض ولكن بصوت غير كل الأصوات ولهجة غير كل اللهجات، لقد بث الرعب في قلوب الجميع وهو يقول: ماذا تريدون؟ تمالك الشيخ نفسه وهو يسأله: ما اسمك؟ ضحك الظل الأسود داخل المريض ضحكة خلعت معها قلوبهم وهو يقول: عجباً! تحاول أن تحضر روحي ثم تسألني ما اسمي، اسمي كورونا كما أسميتموني! لكن الشيخ عاد يسأله: ما هو اسمك الحقيقي؟ صمت الظل قبل أن يقول: يمكنك أن تناديني كورونا الأولى، ثم ضحك في تواصل ضحكة ساخرة؛ وأسقط في يد الجميع.....

كان خالد يستمع إلى الحديث لكنه على عكس الجميع فقد كان يرى ما يحدث، ومن البداية؛ لذلك عندما رأى ظلاً آخر وهو يتسلل محاولاً أن يدخل جسد مراد صرخ محذراً إياه؛ مما جعل هذا الظل يهرب مسرعاً، ومع صرخته فتح الجميع أعينهم، لكن أحد منهم لم يرَ ما كان يراه خالد، وعندما سأله مراد ماذا هناك؟ لم يرَ خالد بداً لأن يخبره شيئاً، قاطعهم صوت الظل الأول وهو يتكلم على لسان المريض ويقول: كورونا هي الموجة الأولى

وإن لم تأتِ ثمارها المرجوة سوف يكون هناك المزيد، سأله الشيخ في سرعة: ولكن لماذا؟ ضحك الظل ضحكة قصيرة وهو يقول: عجباً، أوليس الأمر واضحاً! نحن نريد لكم الفناء... صمت الجميع وطال الصمت قبل أن يقطعه عماد وهو يسأل الظل: ولكن من أنتم؟ لكنه لم يتلقَّ أي إجابة؛ لقد غادر الظل جسد الرجل المريض؛ وبمجرد أن غادر جسده عاد إليه وعيه وهو يشعر بدهشة بالغة؛ لقد كان يتنفس بصورة طبيعية ويشعر أنه على خير ما يرام؛ مما جعله يضحك فرحاً وهو يقول إنها معجزة أيها، الشيخ أنا بخير... كان خالد ينتظر من أي واحد منهم أن يقول أنّه قد رأى أي شيء مما رآه هو، لكن يبدو أنهم لم يروا شيئاً، حتى الشيخ نفسه لم يبدو عليه أنه قد رأى شيئاً!! ولذلك لم يعلق أحدهم وذلك الكائن النوراني يظهر مرة أخرى، ثم يدخل جسد الرجل الذي كان مريضاً ويتحدث على لسانه؛ لقد أخذتهم المفاجأة والكائن النوراني يُحيّي الجميع قبل أن يطلب منهم بأدب أن لا يقاطعه أحد بسؤال أو حتى بكلمة، ثم قال: لقد ظن الشيطان أن وقت القيامة قد قرب أو حان؛ لذلك فقد حاول من ناحيته أن يعجل به؛ أمر أتباعه من الإنس والجنّ أن يعملوا على إمراض أجساد البشر وإفساد نفوسهم، فكانت كورونا، والمرض عرض من أعراضهم، الذي أفسد القلوب قبل الأجساد، أظهر علل النفوس، على أمل أن يرى علامات الساعة الكبرى وقد تحققت؛ على أمل أن يصبح الموجودون هم شرار الناس.....

صمت الجميع وهم يستمعون إليه في رهبة وهو يكمل كلامه ويقول: وكما ظهر الشر واشتد، ظهر معه الخير وانتشر، صمت الكائن النوراني وطال صمته وهو ينظر ناحية خالد ويقول: هناك قوى ظلام تحاول إفساد البشر على الدوام، تارة بالسحر والأعمال وتارة بالمرض والوباء، تستخدم في ذلك ظلام نفوس البشر أنفسهم، لكن في كل مرة يتواجد فيها الظلام سيظهر النور ليقاومه هنا وهناك؛ سيبطل عمله ويمسح أثره؛ يعيننا في ذلك نور قلوب البشر ونور أرواحهم، لكن خالد نظر إليه في حيرة والكائن يقرأ ما يدور في رأسه، ابتسم الكائن وهو يقول: نعم يا خالد إذ كيف للباطن أن يظهر ويؤثر في العالم المادي؟ كيف يكون منشأ العلاج هو الباطن الروحاني؟ ثم يستطيع أن يؤثر في الجسد المادي، أومأ له خالد برأسه تأكيداً على كلامه؛ وهو يتمتم بينه وبين نفسه لقد صاغ الكائن النوراني كل ما يدور في رأسي على أفضل ما يكون، والكائن النوراني يقول: إن من سنن الله في الكون أن هناك الباطن والظاهر ضدين، وكل ضدين يربطهما برزخ لاستحالة تداخلهما، فالبرزخ هو الذي يتيح ذلك الانتقال الناعم والتحول التدريجي للشيء من الباطن إلى الظاهر والعكس، فمثلاً ينتقل أمرٌ ما من الباطن إلى البرزخ ويسري فيه متحولاً بالتدريج حتى إذا انتهى منه يكون في أول درجات الظاهر وهكذا بالعكس، ولأن إدراك الحواس للأشياء يتم من خلال نور باطن الأشياء والذي يلتقى مع نور باطن الحواس فيحدث في القلب الإدراك والذي يترجمه العقل ويقبله الجسد ويتدرج حتى يصبح

الباطن ظاهراً؛ يسري أثره في الجسد ظاهراً، يعيننا عليها نفر من البشر الروحانيين، ذلك لأن البشر بطبيعة خلقتهم يحيون في العالمين طول الوقت، ثم ما لبث أن حياهم وغادر جسد الرجل على الفور، وقف الكائن على الطاولة وهو ينظر إلى خالد وعلى وجهه ما يشبه الابتسامة، ثم اختفى، قام مراد وأضاء الأنوار؛ فأغمض خالد عينه رغماً عنه وعندما فتحها ونظر حوله لم يستطع أن يتمالك نفسه من الدهشة؛ لقد أصبح عدد الجالسين أربعة فقط، الشيخ والرجل المريض ومراد وخالد، سبق الشيخ الجميع إلى الكلام وهو يسأل خالد: هل أخرجوا الكرة من صدرك؟ شعر خالد بالدهشة لكنه قال: نعم، ويبدو أنهم قد توصلوا إلى العلاج بالفعل، سأله مراد ماذا يعني ذلك؟ فأجابه خالد: أنهم منذ أن بدأت جائحة كورونا قد وضعوا كرة في صدري وبها الفيروس نفسه، بحيث يسيطرون عليه داخل هذه الكرة؛ وعلى ما يبدو فقد كانوا يدرسونه بداخلي على أمل أن يجدوا له علاجاً، وقد كان، تمتم الشيخ: حمداً لله، حمداً لله، سأل مراد فجأة: ولكن أين صاحبك عماد؟ وذلك الشخص النحيف؟ أين الجميع؟ نظر إليه الشيخ ثم نظر إلى خالد وهو يبتسم من دون أن ينطق أي كلمة.....

****

مملكة الران

لقد ظهر، لقد ظهر، كانت تردد تلك الكلمات وهي تجري بسرعة لا تتناسب والتجاعيد البادية على وجهها، تعبر ممرات صقلت جدرانها وأرضيتها من صخور رمادية، كانت الممرات من الضيق بحيث تكاد تتسع لجسدها حتى أن كتفيها كانا يصطدمان بالجدران عن اليمين وعن الشمال، وأخيراً عبرتها ووصلت إلى ما يشبه الصحن الكبير، والذي صقلت جدرانه وسقفه من نفس الصخر الرمادي، ومع مصدر الإضاءة الباهت الوحيد داخل الصحن بدا ذلك الرهط من كبار السن الذين يفترشون أرضيته كالأشباح؛ خصوصاً وقد تآكل شعر رأسهم فلم يبقَ لهم سوى بعض الشعيرات الشعثة البيضاء هنا وهناك؛ تساوى في ذلك رجالهم ونساؤهم؛ وجوههم باهتة مليئة بالتجاعيد والتشققات، وجوه لا ينافسها بأس سوى تلك الملابس الممزقة التي يرتدونها والتي لا تكاد تستر عورتهم.... نظر جميع من في الصحن إليها نظرة خوف وحذر وإن بدت على وجوههم علامات الاستفهام، ترجمها أحدهم في سؤال واحد: ماذا هناك؟ فتحت فمها لتجيبه فظهر ما بقي من أسنانها وقد أكلهم السوس وغطى ما بقي منهم السواد، كانت تحاول أن تجيبه لكنها لم تستطِع؛ وهي تلوك الكلمات وصدرها يعلو ويهبط في سرعة

كبيرة، وأخيراً غادرت الكلمات فمها وهي تقول: لقد ظهر النجم في السماء.....

كانت المفاجأة من القوة بحيث أنها شجعت الجميع على الخروج! ربما هي المرة الأولى التي يخلو فيها الصحن من أشباحه، كانوا يجرون أرجلهم الواهنة وهم يغادرون الممر واحدٌ تلو الآخر حتى خرجوا جميعاً من الكهف، وقفوا يتطلعون إلى السماء في دهشة يشوبها الخوف؛ وهم يتلفتون في حذر إلى كتل الجبال السوداء العالية التي تحيط بهم من خلفهم وعن يمينهم وشمائلهم، ثم ينظرون في خوف إلى ذلك اليم المظلم أمامهم، كان النجم باهتاً في السماء ومع ذلك كان يبدو لهم واضحاً؛ فمع تلون القمر باللون الرمادي خفتَ ضوئه؛ ومع غياب النجوم كانت السماء تميل إلى السواد، ساد الصمت المكان وطال، حتى تجرأ أحدهم على الكلام وقال: ماذا يعني ذلك؟ ألقى الجميع عليه نظرة استنكار، لكن أحدهم لم يجبه وهم ينظرون إلى ذلك الرجل الواقف هناك يستند على عكازه، والذي يبدو عليه أنه اقدمهم، أو ربما هو كاهنهم، تطلع إليهم بدوره، حانت منه التفاته إلى أحد الرجال الواقفين قبل أن يقول: كما تعلمون ومنذ سنين كنا نعيش في نعيم؛ أرض خضراء وسماء صافية وشمس دافئة ونهر عذب الماء، ثم فجأة تهدم كل شيء وتحول إلى أنقاض، غابت الشمس والنجوم وظهر ذلك القمر

الرمادي في السماء، سادَ النهرَ الظلامُ بعدما ظهرت تلك الجبال التي يغلفها الدخان بغلاف من السواد....

كان الجميع يتطلعون إليه في انكسار، حانت منه التفاتة ثانية إلى نفس الشخص قبل أن يكمل ويقول: لا أحد يعلم لماذا أو كيف، لكن الحياة على أرضنا تغيرت وتبدل الحال؛ بدأ اليم يقذفنا بماء يشوي وجوهنا ويسلخ جلودنا من أجسادنا، ومن السواد الذي يغلف الجبال ظهرت تلك العمالقة التي تأكل كل من سلخ اليم جلده؛ كأن اليم كان يجهز أجسادنا وليمة لهؤلاء العمالقة!!! ثم جاءت اللعنة الكبرى فقد كتب علينا ألا يموت أحد منا، وأصابنا العقم فلم يعد يسمع في أرضنا صوت بكاء طفل.... وفجأة ظهر من العدم ذلك الصوت العجيب الذي أخذ يعلو بالتدريج والكاهن يصيح فيهم أن أسرعوا إلى داخل الكهف؛ اليم على وشك أن يقذفنا بمائه، تدافع الجميع وهم يحاولون أن يدلفوا إلى الكهف وكاد أن يفلح سعيهم، إلا أن ماء اليم قد طال أحدهم فأخذ يصرخ ويتلوى من الألم والماء يشوي وجهه ويذيب جلده، سقط أرضاً وقد استسلم لمصيره، انقض عليه بعض العمالقة وهم يأكلون لحمه وعظامه، كانت صرخاته تخترق أذانهم وهم يقفون في صمت داخل الصحن منكسين وجوههم في انكسار، طال الصمت وطال...

لكن أحدهم قطع حبل الصمت وهو يقول في شجاعة: لماذا لا ندافع عن أنفسنا، لماذا لا نحاربهم؟ أجابه الكاهن بأنهم حاولوا قديماً ولم يفلح

سعيهم، وهذه هي النتيجة، ثم أشار إليهم وهو يقول: وهذا ما تبقى منا، عاد السؤال الأول يطفو على السطح؛ ماذا يعني ظهور النجم؟ وتطلع الجميع إلى الكاهن وقد نسوا أمر ذلك الرجل الذي التهمته العمالقة حياً، أو ربما هم اعتادوا على الأمر، والكاهن يقول: في البداية حين كنا نقاوم عمالقة الظلام، كان هناك ذلك الشاب الفتي الذي وقف يخطب في الجميع ويحمسهم على مواصلة القتال، صمت الكاهن وطال صمته هذه المرة، نظر الجميع إليه في صمت ثم تجرؤوا على سؤاله واحد تلو الآخر أكمل كلامك، أخبرنا الحقيقة، ما هي الحقيقة، كان الكاهن ينظر إلى نفس الشخص الذي كان ينظر إليه في الخارج وأحدهم يقول: ألم يئن الأوان؟ لكن الكاهن نفض عن رأسه الفكرة وهو يعود ويقول: لكن لم يجد منا من يستمع إليه، وفي أحد الأيام ذهب ذلك الشاب إلى الجبال بمفرده، وغاب هناك وطال غيابه حتى ظننا أنه قد مات، لكنه وفي إحدى الليالي عاد، وأخبرني أنه سيذهب مرة أخرى وأن عليّ أن أنتظر عودته حين يظهر نجم في السماء، صاح أحدهم لكن كيف علم بأمر النجم وظهوره؟ أجاب الكاهن: حين سألته نفس السؤال قال أنه بينما كان هناك في الجبال السوداء يتوارى عن أنظار العمالقة وهو يهرب منهم هنا وهناك، وجد نفسه على قمة الجبال ولا أحد منهم هناك، وبينما كان يسير على غير هدى منه وجد نبع ماء صغير على شاطئه سلة بها كتاب، مكتوب بلغات غريبة لم يستطِع أن يفهم منه إلا بعض الكلمات، وعرف أنه يوجد طريقة بها تزول اللعنات، وأن هناك نور خلف جبال

السواد، وهناك علامات وبدايتها هي ظهور نجم في السماء، وانتهى كلامه معي وبينما كان يغادر مبتعداً سألته إلى أين؟ فأجابني بأنه سوف يذهب إلى خلف جبال الظلام بحثاً عن النور كما فهم من الكتاب.... سأل أحدهم الكاهن في عجل: وماذا حدث بعدها؟ لكنه لم يتلقَّ إجابة على سؤاله أبداً؛ وأعين الجميع تتطلع إلى مدخل الصحن حيث يجتمعون، نظر السائل بدوره فرآه يقف هناك وسط هالة من النور، لقد عاد الشاب فتياً كما هو وكأنما لم تمر عليه السنون....

جلس الشاب على الأرض أمامهم، يحيط به نور هالته، والجميع يتطلع إليه في انبهار واحترام، كانت تعلو وجهه ابتسامة صافية وبدأ الكلام، أخبرهم أنه حين تجاوز أهوال الجبال وظلمتها قابلته صحراء قاحلة ليس فيها زرع ولا ماء، لكنه لم يبالِ فقد كان الهدف عظيم، وكما أنه تنبه من قبل إلى أن الكتاب يخرج منه نور يرشده في الطريق، فطالما كان الطريق صحيحاً لا يخرج منه النور وحين يضل ينير ويرشده إلى السبيل، وبينما هو يمشي في طريقه والكتاب على حاله لا ينير رأى نوراً عظيماً على مرمى البصر فتوجه إليه، مشى الشاب حتى وصل إلى مصدر النور إلى حيث يجلس راعي أغنام في ثياب بيضاء وأمامه من الغنم القليل، والنور يخرج من وجه الراعي عظيم، كان الراعي يجلس في هدوء والأغنام أمامه ترعى في اطمئنان، وبدون أن يلتفت إلى الشاب رحب الراعي به وطلب منه أن يقبل عليه، وحين فعل

رأى وجهه وهو يبتسم له في صفاء، ثم مد يده إليه وهو ويطلب منه أن يعطيه الكتاب، علت الدهشة وجه الشاب؛ فابتسم الراعي وهو يخبره أن الكتاب كتابه هو الذي يحوي كلامه ووصاياه، أعطاه الشاب الكتاب، ابتسم الراعي وهو يضع يده على رأس الشاب ويقول: اللّٰهُمَّ اشرح صدره وفقهه، وحين أبعد يده عن رأسه وأعطاه الكتاب مرة أخرى، ثم أخبره أن يبحث عن مصدر المعاصي هناك وأن يطلب من العاصي أن يستغفر ويتوب، نظر الشاب إلى الراعي في حيرة، طلب منه الراعي حين يعود أن يسأل ملكهم عن هويته الحقيقية، ثم اختفى الراعي من أمامه هو ورعيته، واجه الشاب الأهوال في رحلة عودته وهو يتفادى ساكني جبال الظلام من العمالقة، يختبئ منهم هنا وهناك وهو يحاول أن يسلك نفس الاتجاهات التي سلكها في رحلته أثناء الذهاب، وأخيراً وصل....

كان يدور في رأس كل منهم ألف سؤال لكن الشاب بادرهم هو السؤال: كيف بقيت أنا على حالي شاباً وتقدمت بكم السنون؟ رد عليه الكاهن بأنه لا يعلم وإن كان هو نفس سؤاله الذي كان على وشك أن يسأله إياه، حانت من الكاهن نظرة إلى نفس الشخص الذي كان يرمقه بنظراته كل حين؛ تذكر الشاب كلام الراعي فنظر إلى نفس الشخص الذي لم يكن سوى ملكهم وهو يسأله عن هويته الحقيقية، تردد الرجل الذي كان فيما سبق ملكاً عظيماً، وأخيراً فتح فمه، ومن بين بقايا أسنانه السوداء تكلم،

في البداية تحشرج صوته وخرج مبحوحاً وهو يخبره أنه لا يعلم، رمقه الكاهن بنظرة استنكار وهو يطلب منه أن يتكلم فقد حصحص الحق وآن الأوان، علت أصوات الجميع وهو يطلبون من ملكهم الكلام، كان الملك ينظر إليهم في صمت إلا أنه لم يلبث أن بدأ الكلام وهو يخبرهم عن حال المملكة في ما سبق، حين كان هو ما زال أميراً في ريعان شبابه، أخبرهم كيف كان مزهواً بنفسه ومتعالياً على من حوله، يأخذ كل ما يريد بأي وسيلة كانت، أخبرهم حين رأى تلك المرأة الجميلة التي أسره جمالها، وأرادها لنفسه، راودها عن نفسها لكنها صدته؛ هددها إن لم تستجب له سيقتل أمام عينيها أسرتها، وهنا استسلمت له المرأة رغماً عنها، وحين فرغ منها ألقى لها بعض النقود وهو يبتسم في زهو وتفاخر ومضى إلى حال سبيله، ومرت الشهور وتوفي الأب وأصبح هو الملك، جاءته تلك المرأة في قصره تخبره أنها قد وضعت ولده، سخر منها فهددته أنها ستفضح أمره؛ فأمر بقطع لسانها ونفذ الخدام أمره؛ لكنها رفعت يديها إلى السماء وبدون كلمات بل من قلبها لعنته، وتغير الحال وحلت عليهم اللعنة، كان الجميع يستمعون إليه وقد علت وجوههم نظرات الاشمئزاز، كانوا يعلمون هوية الابن من هوية الأم مقطوعة اللسان، حتى قبل أن ينطق هو ويقول: نعم أنت ابني، نتيجة معصيتي وظلمي، نتيجة غروري وكبري، أعلن لك أسفي وندمي؛ وهنا سمع الجميع صرخة مدوية كادت أن تمزق أذانهم فظنوا أن ماء اليم قد طال أحدهم مرة أخرى لكنهم كانوا بالداخل جميعاً، ثم تكررت الصرخة

وأعقبها صرخة ومن بعدها صرخة، لكنها لم تكن تأتي من هنا بل من هناك من الجبال نفسها، لقد كانت العمالقةُ ساكنو جبال الظلام همُ مَن يصرخون.....

عادل، إصحى في إيه مالك؟ كانت الزوجة تحاول أن توقظ زوجها النائم بجوارها، والذي كان يصرخ ويصرخ بصوتٍ عالٍ، فزعت هي معه واستيقظت من نومها، وأخيراً انتهى الصراخ حين فتح عادل عينيه وهو يلهث، أخذ ينظر إلى زوجته في استغراب كأنه يراها لأول مرة، ورويداً رويداً بدأ عادل يهدأ وتنتظم أنفاسه، أطلق عادل زفرة قوية وهو يقول: يا له من حلم!!! نظرت إليه زوجته وهي تقول في بطء: أهو نفس الحلم؟ قال لها: نعم، لكن أحداثه امتدت في هذه المرة، لقد عاد الشاب وتكلم مع ملكهم عن أسباب اللعنة وعن.... سألته زوجته وهي تعتدل في جلستها على الفراش وتقول: هيا أخبرني بسرعة ما هو السبب؟ هيا، نظر إليها عادل وهو يتمتم في حذر: لا أتذكر، شعرت بخيبة الأمل، إلا أنها تجاوزت شعورها وهي تطفئ الأباجورة التي بجوارها وتعود إلى نومها، لكنها التفتت إليه فجأة حين تذكرت شيئاً ما وهي تقول: غداً هو موعد الطبيب الأسبوعي، أرجوك لا تتأخر عليّ كما فعلت في الأسبوع الماضي، نظر إليها في ضيق وهو يتمتم: أنت تعلمين أنني لا أحب الذهاب إلى أطباء العقم هؤلاء، لماذا لا نترك الأمر للظروف فربما، قاطعته وهي تقول بصوت أقرب إلى التوسل: أرجوك يا

عادل، أزاحت الغطاء بعيداً وهي تعتدل على الفراش مرة أخرى، ثم خلعت حليتها الذهبية من حول معصمها وهي تمد بها يدها إليه وتقول: أعلم أنك قد أنفقت كل ما نملك على الأطباء والأدوية والعلاج، خذها وقم ببيعها....

عادت هي إلى نومها، لكنه لم يستطع النوم، فقام من مقامه وقصد البلكونة يستنشق بعض الهواء النقي، كان يفكر في حاله وما وصل إليه، وعادت به الذكريات إلى أوقات ما بعد وفاة والده، حين كان يملك من المال الكثير، ذلك المال الذي ورثه عن أبيه ومعه شركة مقاولات كبيرة، أخذ ينفض عن رأسه بعض الذكريات، التي كانت تطرق باب ذاكرته في إلحاح عجيب، ربما كانت تحتاج ملتجئاً تلجأ إليه، ربما قد ملت طول الانتظار، أو ربما قد حان الوقت وأتى من الله الإذن، وأخيراً استسلم عادل لذكرياته وفتح الباب فدلفت تدخل إليه مسرعة، وهي تعرض صورها أمام عينيه، وبدأت تعلو وجهه علامات الضيق وهو يرى استهتاره من بعد التزامه، وهو يرى كم المال الذي كان ينفقه على الخمر والملذات، وعلى الملبس والسهرات والشهوات، وهو من كان من قبل فتى طائعاً لله، ها هو يرى خيانته لزوجته، ويرى كيف صبرت هي عليه، كيف كانت تسهر الليالي تدعو له الله أن يهديه ويغير حاله، ثم بدأ شعور الضيق يتحول بالتدريج إلى شعور حسرة وندم؛ خصوصاً عندما رأى مشهد نهاية الشركة وإعلان إفلاسها والحجز عليها وبيعها، وزوال اسم والده من فوقها، تناوبت عليه مشاعر الأسى والندم

والأسف، ثم تذكر حلمه الذي يتكرر معه منذ فترة طويلة، والذي كان يتوقف عند رؤيته لنور يأتي من عمق الصحراء بعيداً، لكن الحلم في هذه المرة امتد ليشمل مقابلة الشاب للراعي، و عودة ذلك الشاب إليهم في صحن الكهف، تذكر جانب من دعاء زوجته له أن رب اغفر له وتب عليه، وانتبه فجأة إلى جزء معين من حلمه، حيث كان ذلك الملك يتحدث عن معاصيه، تمتم بينه وبين نفسه: لماذا أشعر بذلك التشابه بيني وبين ذلك الملك في شبابه، كان ما يزال على شروده حين صك أذنه صوت المذياع يأتي من بعيد، والشيخ يتلو بعض آيات القرآن؛ وانتبه (((فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا))) وفاضت عيناه بالدموع حين فهم واستوعب الأمر؛ إنها معاصيه التي نغصت عليه حياته وضيعت ماله وضيقت أرزاقه....

قام من مقامه؛ ثم ذهب وتوضأ، رفع يديه يناجي ربه وهو يقول بصوت خافت يملؤه الخجل: نويت أن أصلي ركعتين لله على أمل أن يقبل ربي توبتي، وفرغ من صلاته وشعر بهدوء وسكينة يغمران قلبه، ثم ثبتته يد التواب في مقام التوبة فلم يستطع أن يبرح مكانه، رفع يديه وانهمرت الدموع من عينيه وهو يقول: ربِّ تبتُ إليك، ربِّ اقبل توبتي، يا غافر الذنب اِئذن بمحو ذنوبي، ذنوبي ثقيلة ثقل الجبال فهل تغفرها لي؟ وصوت المذياع

يأتي من بعيد والقارئ يتلو آيات من القرآن (((إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا))) وهو يقول: ربِّ أشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا أنت فاِئذن لي بالتوبة واغفر لي، وصوت أحدهم في المذياع يشرح معنى الآيات وهو ويقول: فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه، قال الله تعالى: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)، انهمرت الدموع من عينيه أكثر وأكثر وصوت المنشد يقول: ربى إن يكن ذنبي عظيم فعفوك يا إلهَ الكون أعظم.....

لا يزال على حاله جالساً في مقام التوبة يبكي حين شعر بنور في قلبه يسري؛ لقد رفعه الله إلى مقام الاستغفار، رفع يديه وهو يناجي ربه ويقول: فيما مضى كنت أختال بنفسي وما أملك، أصابني الغرور؛ وملأت الأرض بالمعاصي والشرور، غاب عني ذكرك ونسيت وجودك وظننت أني لا أحتاجك، لكنك ذكرتني وابتليتني وذكرتني بالحقيقة، حقيقة ضعفي، نسيتك فذكرتني، عصيتك فابتليتني، وحين عدت إليك قبلتني، كيف لإنسان متكبر يختال بنفسه أن يرى يا إلهي عظمتك؟ فظلام غروره لن يريه نور جلالك؛ الضعف بين يديك يا إلهي سر الرؤى، هل يكفي أن

أستغفرك بلساني؟ كيف لمن عرف أنّ لا إلٰه إلا الله أن يعمل بها؟ كيف يكون حاله في سكونه وأفعاله وهو مهما فعل لا يعطي لا إلٰه إلا الله حقها؟ الاستغفار سر لا يكون عند المعاصي فقط، بل يجب أن يكون المؤمن حاله كله استغفار؛ إذ كيف يستطيع من حمل التوحيد في قلبه أن يتعلق بغير الله؟!!! وكيف يستطيع من عاش في الدنيا ألا يتعلق ببعضها؟!!! كان صوت المذياع يأتي من بعيد والشيخ يقول: كان رسول الله صل الله عليه وسلم وهو من غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستغفر الله سبعين مرة في اليوم والليلة؛ ها هو الرسول الكريم خير الخلق أجمعين يستغفر الله سبعين؛ فما هو العدد الذي يجب على عاصٍ مثلي أن يبلغه؟!!!!

ثم أطلقته يد الغفار فنام في مكانه، وعاد إلى الصحن بداخل الكهف مرة أخرى، كان الملك ينظر إلى الشاب نظرة استعطاف وهو يقول: سامحني يا بني لقد أخطأت في حقك من قبل مولدك، وأخطأت في حق أمك وظلمتها، كان الشاب ينظر إليه في صمت، وهو يتذكر حديث الرجل في الصحراء حين أخبره أن يطلب من العاصي أن يستغفر ويتوب؛ فتح الشاب فمه وتعلق به نظر الجميع وهم ينتظرون على أحر من الجمر كلامه، كان ما يزال ينظر إلى الملك ثم بدأ يقول: قد أسامحك فيما أملك، لكن كيف أسامح فيما لا أملك؟ أسامحك فيما اقترفت يداك في حقي لكن هناك حق أمي بل وحق الجميع هنا من حولي، نظر مباشرة في عيني الملك وهو يقول: حق الأرض

التي شاخت وبارت، والسماء التي انطفأت شمسها وخار نور قمرها، حق النهر الذي تحول عذب مائه إلى حمم تشوي الوجوه، حق النور الذي حجبته معاصيك وانتصر عليه الظلام بمساعدة أفعالك؛ نكس الملك رأسه وهو يتكلم بصوت خرج من فمه مخنوقاً مع الدموع التي بدأت تسيل من عينيه: ما العمل يا بني؟ كيف أكفّر عن أفعالي؟ شعر الشاب بالشفقة تجاهه وهو يخبره أنه قد سامحه، نظر إليه الملك من بين دموعه وظهر شبح ابتسامة باهته على شفتيه وهو يقول: لكن ماذا عن الآخرين؟ كان الجميع ينظرون إليهما في ترقب، قال الشاب: أريدك أن تعلن توبتك الآن أمام الجميع، قل ورائي يا أبي؛ رقص قلب الملك فرحاً حين ناداه الشاب أبي والشاب يفتح الكتاب المكتوب بلغة غريبة، لكنه الآن يستطيع قراءته ويفهم ما كتب فيه، كان يقرأ منه ويقول: اللّٰهُمَّ إني تبتُ إليك وندمت على ما فعلت فلا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، أنت القوي ونحن الضعفاء إليك، أنت الغني ونحن الفقراء إليك، اللّٰهُمَّ اقبل توبتي وآمن روعي واشف اللّٰهُمَّ أمراضي، اللّٰهُمَّ إني أستغفرك من كل الذنوب والخطايا وأتوب إليك.....

كان الملك يردد وراء الشاب كل كلامه في تضرع وخشوع، والدمع ينساب من عينيه وينزلق على خديه ليسقط أمامه على الأرض، فاض الدمع على الأرض وجرى حتى خرج من الكهف، والملك ما يزال على حاله يبكي ويبكي، خرج الجميع من الكهف وهم يراقبون مجري دمعه الذي انسل خارجه، وفي

الخارج هناك وقف الجمع مشدوها وهم ينظرون إلى المعجزة أمامهم؛ إلى حيث كانت الدموع تسقي شجرة خضراء لم تكن موجودة منذ دقائق في مكانها، تهللت وجوه الجميع لرؤية الشجرة، ومع فيض الدمع وجريانه في كل مكان بدأت تحدث المعجزات، ظهر ضوء الشمس وانزاح الظلام، جرف سيل الدموع الجبال وانقشع من حولها السواد، وعادت المياه في النهر عذبة حلوة المذاق بعد أن ذهب عنها الظلام، وعاد الجميع شباباً وهم يرتدون ثياباً نظيفة ناصعة البياض، رفع الملك يديه ينظر من بين دموعه إلى الشاب نظرة تخلط الدمع بالرجاء وهو يقول: أقبل علي بني، جرى الشاب ناحيته يرتمي بين يديه، وظهر تاج الملك يزين رأسه فنظر الجميع إليه في فرحة وابتهال، وهو يقول: شكراً بني، والشاب يرد عليه بدوره: لا تشكرني بل اشكر الله يا أبتي فهو الكريم الغفور الرحمن الرحيم، ثم رفع رأسه ينظر إلى أبيه ويقول: يا أبتي سيبقى في المملكة النعيم ما دمت تستغفر الله وما دامت دموع التوبة تجري فيها، يا أبتي أوصيك بأن تقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، لاحظ الجميع ذلك الشيء الغريب؛ لقد أصبح الابن يشبه الملك تماماً وكأنه هو نفسه، نظر الملك إلى ابنه في فخر وهو يوصيه بدوره ويقول: أريدك أن تكون أميراً عادلاً، لا تفكر مثلما كنت أفكر، ولا تفعل الآثام مثلما كنت أفعل، رد عليه الأمير وهو يقول: وأنا أريدك أن تكون ملكاً عادلاً لا يظلم نفسه أو غيره أبداً.....

عادل، عادل، فتح عادل عينيه ينظر إلى زوجته نظرة تفيض بالحب والمودة؛ مما جعلها تنظر إليه بدورها في استغراب متسائلة: ماذا هناك يا عادل أنت لم تنظر إليّ هذه النظرة منذ زمن بعيد، سألها عادل: أية نظرة تلك؟ أجابته قائلة: نظرة المودة، كان عادل يشعر بالسكينة والهدوء وكأنه كانت هناك جبال تجسم على صدره ثم انزاحت، يشعر بالصفاء والنور وكأن الظلام كان يسكن روحه ثم انقشع، يشعر بقوة وطاقة تسري في بدنه وكأنه عاد صبياً من جديد، ثم تذكر شيئاً هاماً؛ فنظر إلى زوجته وهو يسألها: لكن لماذا أيقظتني من نومي في هذه المرة؟ هل كنت أصرخ وأنا نائم في فراشي مرة أخرى؟ نظرت إليه زوجته في حيرة وهي تقول: عادل، أنت لست في فراشك، أنت نائم على سجادة الصلاة، نظر عادل حوله وقد استوعب الأمر، ثم عاد ينظر إلى زوجته ووجهه تملؤه الحيرة ومن عينيه تطل اللهفة قبل أن يسألها: لكن لماذا أيقظتني على أية حال؟!! تذكرت ذلك الأمر الهام فنظرت إليه وهي تبتسم وتقول: سأخبرك عندما أعود، لحظة واحدة دعني أتأكد أولاً، منذ أن غادرته زوجته وهو ثابت على حاله من الراحة والهدوء تسكن نفسه الطمأنينة والسكينة، إلا أنه قفز واقفاً حين عادت زوجته وهي تسرع الخطى وتردد اسمه بصوت عالٍ: عادل، عادل، أجابها في لهفة: ماذا هناك؟ دلفت إليه ووجها يشرق كأنه الشمس وهي تقول: لن تصدق ما حدث!!! وقبل أن ينطق هو بأي حرف كانت هي تصرخ في سعادة غامرة: لقد أجريت اختبار الحمل المنزلي و، و، لقد حدثت المعجزة؛ أنا حامل يا عادل؛ لم

يتمالك عادل نفسه والدموع تنهمر من عينيه نهراً، قام وسجد لله شكراً وهو يقول بصوت عالٍ: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.....

****

رحلة الصعود

كان المشهد عجيباً بحق، مع تلك الملابس البيضاء التي يرتديها وسط جدار الثلج الهائل الحجم الذي يتسلقه؛ فلو طرف الناظر إليه طرفة واحدة سيختفي من أمامه، ولن تستطيع عينه أن تعثر عليه مرة أخرى، وحتى لو عثرت عليه ظناً ستعتبره مجرد برد أبيض لا حول له ولا إرادة ولا قوة، فهو لن يبدو حتى كنقطة وسط المحيط، ولكن ستختفي النقطة نفسها ولن يعود لها وجود، وسيبقى فقط المحيط..... كان لايزال على حاله هناك وقلة الحيلة تكبل يديه وقدميه بحبل العجز؛ الذي ينعقد طرفه حول رقبته؛ فيجعله يلتقط أنفاسه في صعوبة، كان يقاوم الغيبوبة التي تزحف على عقله كما كان يقاوم شعور اليأس الذي يلتهم إرادته، بدأ يفكر في أن يترك ذلك الجزء الذي تتشبث به يده في قوة كغريق يتعلق بقشة على أمل أن يجذبه أحدهم...

لقد كان في واحدة من تلك المواقف التي لا تكفيها الإرادة، بل تحتاج معها إلى القدرة والاستطاعة وإلا سيكون مصيرها الفشل الذريع، خطر له أن يهبط فنظر إلى أسفل في بطء وحذر فلم يرَ سوى جدارٍ رأسيّ من الثلج الذي لا يُرى له بداية، ودخان يزحف عليه من أسفل ويكاد أن يدركه،

وعن يمينه وعن يساره يغطي الثلج الأفق، نظر إلى أعلى إلى ما يبدو له كنور أخضر باهت خلف ضباب أبيض يغوص فيه جدار الثلج، بدا له كأن جدار الثلج يخرج من ذلك الضباب، أو كأن ذلك الجدار الثلجي الذي يتسلقه في بطء هو نفسه جبل من الضباب....

حاول أن يتذكر كيف أصبح في هذا الموقف كله؟ ولماذا؟ لكن دون جدوى، أخذ يتساءل في حيرة لماذا قد يوضع أي مخلوق في مثل ذلك الموقف المعجز! ما هي الجدوى أن يمتلك النية والإرادة ليتسلق جدار الثلج الذي يتخذ تلك الزاوية القائمة؛ إذا كان من المستحيل عليه تسلقه! نعم هو يشعر بوجوب تسلقه ويملك الإرادة ليفعلها لكنه لا يملك الاستطاعة، كل ما يملكه هي يديه، التي يغرس أحدهما في جدار الثلج ويحمل جسده مرتكزاً عليها، ويرفعه في سرعة ليغرس يده الأخرى قبل أن ينهار ذلك الجزء الذي يغرس فيه الأولى، وعندما يجد أحد النتوءات الكبيرة يتكور على نفسه بداخلها ليلتقط أنفاسه.....

دخل أحدهم تلك النتوءات الضيقة، كان يقبع فيه متكوراً على نفسه كجنين يترقب موعد خروجه، ثم بدأ الغيوم داخل عقله ينافس الضباب في الأعلى، فبدا له أنها النهاية لا ريب، لقد ذهبت عنه إرادته وخارت قوته وخذله عقله؛ توقفت مقاومته وأغلق عينيه وهو ينتظر في استسلام نهايته، فقد منطقه؛ وأخذ يهذي بكلمات وهو يظن أنه قد لامس الموت، يحدث

نفسه بأن الموت ليس بذلك السوء؛ خصوصاً حين يفعل الإنسان كل ما يستطيع فعله، لقد حاول بكل قوته أن يتسلق الجبل ويؤدي مهمته، نعم إن الموت ليس بذلك السوء فقد يتحول جسده في النهاية إلى قطعة ثلج تضاف إلى جبل الثلج هذا، ثم شعر بالحزن ليس لموته ولكن لأنه سوف يغلق بجسده الميت ذلك النتوء الذي ربما يلجأ إليه أحد آخر في محاولة أخرى لإتمام المهمة، عندما وصل بتفكيره إلى تلك النقطة غمره شعور رأفة على من سيسلك ذلك الدرب بعده، شعور بالشفقة على آخرين لا يعرفهم وربما لن يقابلهم أبداً، هجمت على رأسه فكرة نفخت الروح في قلبه وأحيت فيه همته وحسن ظنه وذكرته برسالته؛ هو وإن كان قد فعل ما عليه إلا أنه لابد أن يكمل رحلته رحمة بمن سيأتي بعده؛ فتح عينيه في صعوبة مرة أخرى وقام من موته، قام من مقامه هذا وهو يتطلع إلى مقام أعلى.....

رفع رأسه في ثقة ينظر إلى الضوء الأخضر مبتسماً، جاءه الضوء يسعى، أمسك به وجذبه إلى أعلى، حتى وصل به إلى قمة الجبل، وهناك أخذ يتخير موضع قدميه في عناية؛ وهو يطأ بهما مواضع لم تطأها قدم قبله، كان يخطو فوق القمة بحرص وهو يتلفت حوله في لهفة، حتى وجد المكان المناسب ليتمم رسالته، أخرج من ملابسه البيضاء تلك البذرة، وغرسها، فما لبثت أن نمت وأثمرت من فورها شجرة، ثم امتد من حولها الشجر والزرع يرسم واحة

الخضرا، وصل بين آثار أقدامه ليرسم الطريق إلى الواحة، ثم وضع على جانبي الطريق العلامات والوصايا لتساعد السائر فيه على الوصول، وعكف يصنع من جذوع الشجر ولحائه سلالم عدة، ألقاها من أعلى الجبل إلى أسفله بعد أن ثبت أطرافها وأحكمها؛ حتى ييسر الصعود إلى من سيأتي بعده، وبينما هو جالس يتأمل الواحة الخضراء من حوله كان يتمنى من كل قلبه أن يكون قد أتم رسالته وأن يكون قد أحسن عملاً.....

****

قطار الحقيقة

كان يجلس في هدوء وهو يتكئ على مرفقه الأيمن، ويستند بظهره إلى مقعده في استرخاء وهو ينظر بلا مبالاة إلى الظلام الدامس خارج نافذة القطار، مر الوقت دون أن يتململ في جلسته أو يغير من وضعية يديه... ثم عقد حاجبيه في شدة وهو يمعن النظر خارج النافذة؛ لقد انتبه إلى أنه طوال هذا الوقت لم يرَ أي شيء في الخارج ولا حتى شعاع نور!!! فقط ظلام ولا شيء معه، ثم انتفض في مكانه وأرهف سمعه فلم يسمع إلا الصمت المطبق، صمت يغلف كل شيء بغلاف من الريبة!!! التفت عن يساره، ثم نظر أمامه، كان جميع ركاب القطار نائمين في مقاعدهم كتماثيل من الشمع، هبّ واقفاً وهو يتفحص الركاب أمامه، لقد كان يجلس في مؤخرة العربة، بينما الركاب الآخرون يجلسون في المقاعد المقابلة له وجوههم مقابلة لوجه، أحصى عددهم، هم فقط سبعة ركاب لا غير.... عن يساره يجلس زوجين شابين بجوار بعضهما، والزوجة تميل برأسها يميناً وهي تحمل على يدها طفل رضيع، ثم يليهم ذلك الشاب الأنيق الذي يجلس وحيداً وهو يغوص في مقعده ويميل برأسه إلى الخلف.... ومن بعده يجلس ذلك الزوج المسن، أما الرجل فقد كان يسند جبهته على يده والتي بدورها تستند على العكاز المنتصب أمامه، والمرأة تسند رأسها على كتفه هو.... ومن أمامه مباشرة كان يجلس

ذلك الرجل، وما إن وقعت عينيه عليه حتى عقد حاجبيه في شدة؛ فقد كان ذلك الرجل يشبهه بطريقةٍ ما؛ أخذ يتفحص بعينيه ذلك الرجل النائم أمامه لعله يجد وجه الشبه بينهما، لكنه لم يجد أحداً..... في النهاية جلس في مكانه مرة أخرى وقد زادت حيرته، لقد انتبه إلى أنه لا يسمع حتى الصوت المميز لعجلات القطار وهي تسير فوق القضبان.....

بدأ صوت تساؤلاته يغادر عقله وهو يتحول على شفتيه إلى همس أخذ يعلو بالتدريج حتى تحول إلى صوت مسموع تردد صداه عالياً يشق ذلك السكون وهو يحمل حيرته: ماذا يحدث؟! ماذا يحدث؟! نظر إلى الركاب أمامه وهو يقول (بلهجة آمرة): أيها، الركاب استيقظوا، وفجأة دبت الحياة فيهم وهم يفتحون أعينهم ويتثاءبون في صمت، ثم قال: أين الصوت؟؟؟ بدأ يظهر الصوت المميز لعجلات القطار وهي تسير فوق القضبان، كما بدأ يسمع صوت الركاب وهم يتكلمون ويضحكون دون أن يستطيع أن يميز من كلامهم حرفاً واحداً، ما عدا ذلك الزوج الشاب عن يساره، كان الطفل يبكي وأمه تهزه يميناً ويساراً لعلّه يصمت... نظر خارج النافذة وهو ينتظر ظهور الضوء والتفاصيل في الخارج، وقد كان منظر خضرة جميلاً يمتد إلى الأفق بمحاذاة نهر أزرق بديع مما خلب لبه، وبينما كان يتطلع إلى المنظر الجميل خارج النافذة سمع الزوجين الشابين عن يساره وهما يتجادلان بصوتٍ عالٍ؛ التفت إليهما في حدة فنظرا إليه في آلية، رفع يده فصمتا تماماً، نظر إلى

الزوج نظرة ذات مغزى فهم منها الزوج ما عليه فعله؛ صفع الزوج زوجته صفعة قوية على وجهها، ثم نظر إلى الزوجة فما كان منها إلا أن نعتت زوجها بألفاظ نابية؛ فصفعها الزوج مرة أخرى، مما جعلها ترفع يدها وهي تحاول أن ترد له الصفعة حتى أنها لم تنتبه إلى رضيعها الذي وقع أرضاً وهو يبكي بشدة في فزع، انحنى الزوج يلتقط الرضيع، وهنا خفض هو يده فما كان من الزوج إلا أن طلّقَ في الحال زوجته.....

وقف غير مصدق لما يحدث، نظر إلى الوجوه أمامه والذنب يطل من عينيه، فما كان منه إلا أن جرى مسرعاً يغادر تلك العربة إلى العربة التي تليها، وجلس على مقعد هناك، نظر أمامه فوجد نفس الركاب بنفس الترتيب فعقد حاجبيه في ريبة، إلا أنه لم يلبث أن شرد بذهنه وهو يتطلع إلى ذلك المنظر الجميل في الخارج، أخرجه من شروده صوت نقاش عالٍ، التفت عن يساره وهو يتوقع أن يكونا نفس الزوج الشاب لكنهما نظرا إليه في حيره والصوت يأتي من أمامهما من عند مقعد الزوج المسن، وعندما نظر ناحيتهما بدأ يميز كلامهما في وضوح، رفع يده يأمرهم أن يتوقفوا، نظرا إليه في لا مبالاة ثم أشاحا بوجهيهما عنه قبل أن يستكملا نقاشهما بصوت عالٍ، شعر بالحيرة وعقد حاجبيه علامة التفكير العميق، ثم ما لبث أن ابتسم وهو ينظر إليهما قبل أن يدخل في عقل الرجل بعض الشكوك حول أسلوب معاملة زوجته له، ثم من لحظته يدخل نفس الأفكار والشكوك في عقل

الزوجة حول معاملة زوجها لها، وانتظر، كان على يقين تام من أن هذه الطريقة سوف تؤتي ثمارها ولكن ببطء، وقد كان، فبعد مرور دقائق قليلة خرج من فم الزوجة كلام فيه اتهام لزوجها بالخرف والجنون، عاد يدخل في روع الزوج أن زوجته تنتظر موته على أحر من الجمر لتتمتع بإرثها منه، ما يلبث الزوج أن ردد الكلمات في آلية على مسامع زوجته، وعندها أشاح هو بوجهه عنهما ليعود وينظر إلى ذلك المشهد الجميل خارج النافذة، بدأ صوت الزوجة يعلو مختلطاً بالصراخ قبل أن يلكزها الزوج في صدرها بعكازه لكزة قوية، همدت معها حركتها وهي جالسة في مكانها، نظر إليها الزوج في حيرة قبل أن يتسمر في مكانه ويعود المشهد كله إلى الصمت والسكون مرة أخرى.....

غادر تلك العربة مسرعاً إلى العربة التي تليها، وجلس هناك في نفس مكان مقعده، لم يشعر بالدهشة حين وجد الركاب كما هم تماماً، والزوجين المسنين يتحاوران في هدوء وود بادٍ، ألقى عليهما نظرة سريعة قبل أن يعود إلى المشهد الذي يأخذ عقله خارج القطار.... علا صوت الراكب الذي يجلس بمفرده عن اليسار وهو يطلب من الجميع الهدوء لكي يستطيع أن يستمتع بما يراه في الخارج، لكن لم يلتفت إليه أحد، فخرج الأمر من فم ذلك الراكب بصوت هادر وهو يطلب من الجميع الصمت فصمتوا في الحال، زوى ما بين حاجبيه في ضيق وهو ينظر إلى ذلك الراكب الذي يمتلك

قدرات تشابه قدراته؛ وشعر بالقلق يسيطر عليه، فنظر إلى الزوجين وطفلهما عن يساره ورفع يده أن تكلموا، فتح الزوجين فاهيهما في صعوبة وبدا كأنهما جزء من مشهد تجري أحداثه بالتصوير البطيء، والطفل يحرك يديه ورجليه بنفس البطء، أو كأنهم يحاولون التغلب على قوة أخرى تمنعهم من الكلام... واشتد الصراع بين القوتين، الأول يرفع يده وهو يشير بها إلى أحدهم فيتحرك أو يتكلم، والآخر يحاول منعه ليجعله يسكن أو يصمت وهكذا.... بدا أن الراكب الآخر أكثر قوة فقد صمت الجميع ومنع تأثيره عليهم، كأنه وضع حاجز بينه وبينهم، وهو ينظر إليه في سخرية؛ اشتعلت النار في صدره فلم يدرِ بنفسه إلا وهو يجذب العصا من يد الرجل المسن وينهال بها على رأسه؛ لعلّه يمحو تلك الابتسامة من وجهه، وفعلاً توقف عن الابتسام ولكن كانت حياته قد توقفت معها.. وقف ينظر إلى الدماء التي تسيل من الجثة أمامه وهو في صدمة حقيقية، ألقى العصا وهو يجري مسرعاً إلى العربة التالية لعلّه يجد الرجل حياً هناك مرة أخرى، وقد كان، فجلس في مقعده يتنهد في ارتياح عندما رآه حياً يجلس في نفس المكان، فعاد يتطلع إلى المشهد خارج النافذة في لهفة.....

تحركت يده إلى أعلى فجأة، ثم عاد وأنزلها وهو ينظر أمامه، وتسمر في مكانه، فقد كان ذلك الرجل الذي شعر بوجود شبه ما بينهما من البداية، كان ذلك الرجل واقفاً وهو يتحكم فيه هو نفسه كما كان يتحكم في الزوجين

المسنين، ها هو يجعلهم يقومون ببعض الحركات البهلوانية الصعبة، أما الرجل الآخر عن يساره فكان يتحكم في تلك الأسرة المكونة من الزوجين والطفل، فيجعلهم يرقصون!!! كان هو نفسه يحرك رأسه يميناً ويساراً رغماً عنه، وهو يتمتم بأنّ ذلك الرجل أقوى منه ومن الرجل الآخر عن اليسار، حاول أن يتخلص من سيطرته عليه دون جدوى، فشعر بالحسد يملأ قلبه أعقبه غضب عصف بكيانه، برقت الفكرة في رأسه، فنظر ناحية الرجل الذي يجلس يساراً وأسر إليه بأنّ الرجل الآخر قويٌّ جداً، وأنه قد ظلمه ولم يقتسم الغنائم معه بالعدل، وأقنعه أيضاً بأنه سيسيطر عليه هو نفسه فيما بعد، ولذلك يجب عليهما أن يضعا حداً له، فهما لن يخضعا له بعد الآن، وكان له ما أراد ووضعا الخطة معاً، وحّدا قوتهما وفي اللحظة المناسبة انقضا عليه وهما يكبلانه ليشلا حركته، ثم كتما أنفاسه بقوة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة!!! وقفا يلتقطان أنفاسهما قبل أن ينظرا إلى بعضهما البعض، وانقض أحدهما على الآخر كوحشٍ كاسرٍ، وكانت معركة متكافئة بدا أنه لن ينتصر فيها أحد، وفي مكر سيطر هو على الزوج الشاب، وجعله يلتقط عصا الرجل المسن، ثم ينهال بها على رأس خصمه من الخلف حتى طرحه أرضاً جثة بلا حراك... تسمّرَ في مكانه والذنب بادٍ على وجهه فجرى مسرعاً ليغادر تلك العربة إلى التي تليها، حيث يجلس في نفس المقعد ويكون الركاب جميعاً بخير أمامه مرة أخرى، وصل بالفعل إلى العربة التي تليها، لكنها كانت نهاية القطار حيث توجد تلك المرآة الكبيرة، كان يطأطئ رأسه أرضاً وهو

يحاول أن يجد تفسيراً لما حدث، وعندما حانت منه التفاته إلى صورته المنعكسة في المرآة وجد قرنين كبيرين يخرجان من جبهته وحين فتح فمه خرجت منه النار....

****

قلبٌ مفتوح

هي وإن كانت تشبه الكرة، لكنها تبدو عجيبة بلونها الأزرق الباهت، وسطحها المغزول من الألياف والمليء بالنتوءات، كانت تجري بسرعة عالية داخل مجراها المتعرج وسط ذلك الضباب الأبيض الكثيف، تنساب في نعومة بداخله بحيث لا تلامس جدرانه التي لا تكاد تتسع لها.....كان المجرى يبدو بلا بداية وكأن الكرة قد ظهرت من العدم! بلا نهاية وكأنها ستجري فيه إلى الأبد! لكن، المجرى انتهى فجأة، وقفزت الكرة خارجه لتسقط داخل تجويف في أعلى صخرة تتوسط ذلك المكان البيضوي الفسيح، والذي غزلت جدرانه كلها من نفس الألياف العجيبة، لتكون نسيجاً يمتد في جميع الاتجاهات.... لكن الكرة ومن اللحظة الأولى التي سقطت داخل ذلك التجويف، كانت تتحرك بسرعة جنونية في جميع الاتجاهات فتصدم أركانه بصوت يدوي صداه داخل المكان، كانت كأن بها مس! أو كأنها تنتظر حدوث شيءٍ ما على أحر من الجمر.. ورويداً بدأت حركتها تهمد حتى كادت أن تتوقف تماماً، لكن فجأة ضرب الكرة ما يشبه البرق، ثم دوت فرقعة عالية كأنها الرعد، وخرج من داخل الكرة ما يشبه الشرر الكهربائي يصاحبه صوت أزيز، ثم همدَ كل شيء فجأة، وسكنت الكرة تماماً وساد الظلام لمكان، تكرر الأمر مرة أخرى، وظهر البرق يضرب الكرة وسمع

صوت رعد يعقبه صوت أزيز يخرج منها!!! وانتهى البرق والرعد لكن صوت الأزيز استمر في هذه المرة، بل وأخذ يتضاعف ويتضاعف، ثم خرجت شرارة كهربائية من الكرة ضربت نقطة في تلك الألياف المغزولة جدرانا فأضاءتها، لينتشر بعدها الضوء في الأنسجة من تلك النقطة سريعاً وفي جميع الاتجاهات....

كان يتصور، وهو يحلق عالياً قريباً من سقف الحجرة أنّ الكرة ستكتفي بذلك، لكن الشرر أخذ يخرج منها عظيماً ليضيء ألياف الجدران، فينتشر الضوء خلالها بسرعة في جميع الاتجاهات كالنار في الهشيم... وفجأة أحس من مكانه العالي هذا بقوة تجذبه إلى أسفل في اتجاه ما يشبه الجسد المستلقي فوق سريرٍ ما، وبينما كان يهبط مقترباً من ذلك الجسد لاحظ أنه يشبهه تماماً، وكأنه هو نفسه!!! إلا أن قفصه الصدري كان مشقوقاً ويظهر منه القلب مفتوحاً على مصراعيه، ثم لامس ذلك الجسد واخترقه، أطلق جميع من في غرفة العمليات زفرة ارتياح حين عادت مؤشرات الحياة ترسم موجاتها على تلك الأجهزة، كان يبدو على الجميع السرور، وأكثرهم سروراً ذلك الشخص الذي يمسك في يده جهاز (ماكينة القلب)، كان يتنهد في ارتياح وهو يمسح عرق تصبب على جبينه، وعاد الجميع يكمل العملية في هدوء.....

كان لا يزال مغمض العينين يتذكر ذلك المشهد بكل تفاصيله، كيف كان يحلق في سقف حجرة العمليات، وكيف كان يرى جسده ممدداً على الطاولة والفريق الطبي من حوله منهمكين في إنقاذ حياته، ثم فتح عينيه في صعوبة وهو ينظر حوله في إعياء محاولاً أن يحدد معالم المكان الذي يرقد فيه الآن، يبدو أنهم قد نقلوه إلى تلك الغرفة بعد العملية، وأنه ليس الوحيد في الغرفة، فقد كان يرقد أحدهم على سرير في الطرف الآخر منها، لم يستطِع أن يتبين ملامحه من مكانه هذا، كانت درجة الحرارة المنخفضة تشعره بالنعاس، ورائحة التعقيم من حوله تزكم أنفه، وهناك خراطيم كثيرة وأشياء مختلفة تدخل في جسده أو تخرج منه، سرعان ما أغمض عينيه رغماً عنه، ثم عاد وفتحهما حين انتبه إلى حركة ما بجوار سريره.... لقد كانت ممرضة ما تقترب منه وهي تقرأ مؤشراته الحيوية على شاشات الأجهزة من حوله وتدونها في سجله، ثم نظرت إليه وهي تبتسم وتقول: حمداً لله على السلامة، حاول أن يبتسم بدوره أو يقول شيء ما لكنه لم يقوَ على فعل أي منهما، وفجأة وجد قلب الممرضة يظهر واضحاً أمامه وهو ينبض!!! نعم لقد انشق صدرها وظهر القلب في تجويفه، ثم انشق القلب نفسه، ظن أنه حين ينشق القلب سيخرج منه الدم متدفقاً، وأن الممرضة نفسها ستقع على الأرض جثة هامدة، إلا أنه لم يحدث أي شيء من هذا، بل ظهر ذلك المشهد الجميل بداخله، سماء زرقاء صافية وأرض خضراء يحيط بهما ضباب أبيض خفيف من كل جانب، وكما انشق الصدر فجأة، التأم فجأة، واختفى المشهد تماماً،

والممرضة مازالت تبتسم له في ود وهي تقول: كل شيء تمام، حاول أن تغمض عينيك وترتاح قليلاً. انصرفت الممرضة وتركته يحاول أن يفسر بعقله المجهد الناعس ما حدث، إلا أنه لم يستطِع وفي النهاية استسلم وهو يقول في نفسه: هي تخاريف البنج لا ريب، لكنه تذكر كيف كان يرى من مكانه بقرب السقف صدره المشقوق وقلبه المفتوح في تجويفه، وكيف كان يرى تلك الكرة والجدران المصنوعة من الألياف بداخل قلبه المفتوح على مصراعيه أمامه، فسأل نفسه في حيرة: ما هذه الكرة والجدران والألياف، كيف كنت أستطيع أن أراهم، لكنه ومع الإجهاد ومع عقله المشوش استسلم للنوم....

وحدث الأمر مرة أخرى!! فبعد مرور وقت لا يدري كم هو، فتح عينيه ليجد ذلك الطبيب وهو يقف فوق رأسه، كان الطبيب يمسك بسجله، يكتب فيه وهو يتكلم مع نفس الممرضة، كان يخبرها أن تعطيه جرعة من هذا الدواء بصورة دورية، وعندما رآه الطبيب وقد استيقظ، ابتسم له وهو يقول: حمداً لله على السلامة!!! لقد كتب لك عمراً جديداً، كان يهم بسؤاله عن معنى كلامه لكن حدث الأمر وانشق صدر الطبيب أمامه، وظهر قلبه وبداخله ما يشبه السماء الصافية ينيرها البدر فوق بحرٍ أحمر قانٍ!!! وأسقط في يده. فمع تكرار الأمر أيقن أنها ليست تخاريف البنج، مر الوقت عليه ثقيلاً وهو يحاول جاهداً أن يصل لتفسير يريح به نفسه لكنه لم يجد واحداً،

فصرف عقله إلى محاولة تفسير ما رآه بداخل قلبي الممرضة والدكتور لعلّه يصل لشيءٍ ما، وأخيراً اقتنع أن عليه التحدث مع أحدهما حين يخرج من المستشفى، مر الوقت ونسي الأمر تماماً وهو ينتظر زيارة من أسرته وأصدقائه، يا ليتهم لم يأتوا!!! لقد رأى المشاهد تباعاً بداخل قلوبهم!! هذه أرض خضراء، وهذا بداخله طيور في السماء، وهذا يملؤه ليل هادئ، أزعجه الأمر كثيراً، فقد كان يتكرر مع كل من رآهم، كل من أتى لزيارته من أهله وأصدقائه، كان يحدث نفسه بوجوب السيطرة على هذا الأمر، بل كان يغمض عينيه وهو يحاول أن يمرن نفسه على ذلك، لكن بمجرد أن يأتيه أحدهم ويفتح عينيه يتكرر الأمر أمامه.... قلوب مفتوحة يشاهد بداخلها مشاهد عجيبة، نعم كانت هناك بعض المشاهد التي تبعث الراحة والهدوء في نفسه، كرؤية مشهد ماء يجري أو سماء صافية، لكنها في غالبيتها كانت تبعث في نفسه الشعور بالانقباض والضيق، خصوصاً مشاهد الليل الحالك السواد والأراضي الزلقة والطين الأسود والحيوانات ورؤية الدماء!!!! كم كان يحزنه أن يرى تلك المشاهد البشعة تملأ قلوب من يحب، وانتهى وقت الزيارة، سيرتاح من رؤية تلك المشاهد أخيراً، إلا أنه لم يستطع أن يريح عقله وهو يحاول أن يفهم ما يحدث معه، حتى هداه عقله إلى الفهم أخيراً، إنها هبة من الله، عليه أن يستخدمها ليساعد بها غيره.... راق له ذلك التفسير، نعم سيجد معنى وتفسيراً لما يشاهده بداخل كل قلب ومنها يعرف صفات صاحبه، ثم يقوم بنصيحته لوجه الله، نعم سيعمل على ألا يفشي سر أحد،

سيعمل بإخلاص لوجه الله، سرت في نفسه الراحة والسكينة وعمه الرضا، وهدأ عقله فأغمض عينيه وهو يحاول أن ينام، كان ذهنه من الشرود حتى أنه لم يشعر بذلك المريض الآخر وهو يغادر فراشه ويسير في اتجاهه ثم يجلس بجواره، فتح عينيه في سرعة وهو ينظر إليه في حدة؛ فقد أجفله، شعر ذلك المريض بالإحراج فقال: أعتذر يا بني إن كنت قد أخرجتك من حالة الرضا تلك، رفع عينيه وهو يحدق فيه وهو يهم أن يزجره إلا أنه وجده شيخ طاعن في السن، فاكتفى بهمهمة تحمل معنى أن لا عليك.....

لكنه انتبه لجملة (حالة الرضا تلك)؛ فعقد حاجبيه وهو ينظر إلى وجه الشيخ ويتفحصه، وبحركة تلقائية حرك بصره لينظر إلى مكان قلبه، وانتظر أن ينشق صدر الشيخ، ثم قلبه ليظهر ما بداخله لكن لم يحدث شيء، عقد حاجبيه مرة أخرى وهو يحاول، ويحاول أن يرى ما بداخل قلبه دون جدوى، كان يتمتم بينه وبين نفسه عما يعنيه هذا الأمر، حين سأله الشيخ فجأة: ماذا هناك يا بني، لماذا تبدو الحيرة في عينيك؟ أخبرني يا بني، أخبرني بكل شيء، وجد نفسه ودون إرادة منه يقص على ذلك الشيخ كل شيء، وبالتفصيل منذ الدقيقة التي حلقت روحه فيها في سقف غرفة العمليات حتى الآن، استمع إليه الشيخ في إنصات وهو يبتسم دون أن تبدو عليه علامات الدهشة، وهو ما أدهشه نفسه، فسأل الشيخ: أنت لم تندهش لما أخبرتك به، أنت لا تصدقني إذاً، أليس كذلك؟!!! تجاهل الشيخ كلامه وهو

يسأله فجأة: لماذا تظن أنها هبة من الله، فأجاب: لأني أستطيع أن أرى ما بداخل القلوب، سأله الشيخ: وما الميزة في ذلك، نظر إليه في حيرة وقد بهته السؤال إلا أنه غمغم وهو يقول: أستطيع أن أعرف كيف أساعد غيري ليتخلص من القبح الذي بداخل قلبه والصفات السيئة فيه، نظر إليه الشيخ طويلاً قبل أن يقول: اسمع يا بني، أنت تنظر إلى قلب أحدهم وتحكم عليه في لحظة معينة، قد يكون فيها حزيناً أو مهموماً، فرحاً أو مسروراً، راضياً أو ناقماً، قد يكون رأى شيئاً ما في طريقه سر قلبه أو أدخل فيه شعور بالصفاء، من الممكن أنه قد تذكر شيئاً أكسبه شعور بالحزن والأسف، إنك حين تنظر فإنك ترى لحظة، ترى مشهداً جامداً وليس حياة، أنت ترى ما بداخل القلوب كأنه لوحة مرسومة أليس كذلك، أجابه في شرود (وكأنه يفطن لهذا الأمر للمرة الأولى): نعم، صمت الشيخ وهو ينظر إليه ويقول: إن حياة الإنسان كالرواية التي تكتب أحداثها وترسم مشاهدها في صفحات قلبه، فلا تخطئ وتكون كالناقض الذي يحكم على الرواية كلها بمجرد أن يقرأ صفحة واحدة أو حتى صفحات منها، لأنها رواية طويلة جرت بعض أحداثها بعيد عنك والباقي منها ما زال يكتب وليس ليدك ولا ليد غيرك فيه الكثير، لا يتحكم أحد في أحداثها، وكل ما نملك هو الرجاء والدعاء أن يكون ما بقي منها سعادة، وأن تكون نهايتها خيراً.....

يا بني ما يدريك أن ما تراه في قلب غيرك ليس إلا انعكاسك أنت، انعكاس نظرتك إليه وحكمك عليه!!! قد يكون عدم رضاك عن بعض أحوالك وشعورك بأنك أقل من غيرك هو ما يريك ما تتمنى أن تراه فيهم، أنت ترى أمنياتك بأن يكونوا في داخلهم أقل منك، يا بني لا تحكم على غيرك بما تتمناه ولا حتى بما تعرفه عنه، وإلا لن يكون السوء في قلبه هو بل سيحمله قلبك أنت... حامد، نظر إلى الشيخ وهو يقول: نعم، أيها الشيخ. إن اسمي هو حامد، ابتسم الشيخ وهو يقول: ساعد نفسك أولاً وانزع السوء من قلبك حتى يحيا، وتغمر السعادة روايتك، ويكون نهايتها الخير.. دخلت الممرضة الليلية عليه الحجرة وهي تسأله في دهشة: من سمح لك باستخدام جوالك، بدت عليه الحيرة وهو يخبرها أن جواله ليس معه، عادت تسأله: مع من كنت تتحدث أثناء دخولي، أم تراك كنت تحدث نفسك؟؟؟ نظر بجانبه فلم يجد أحداً، لقد اختفى الشيخ، نظر إلى مكان السرير في طرف الحجرة فلم يجده، والممرضة تبتسم في شفقة وتقول: لقد أخبروني عندما أتيت بأن عمليتك كانت صعبة جداً، وأنك كنت على وشك الموت، لقد أجروا لك عملية قلب مفتوح استأصلوا فيها ورماً خبيثاً... تذكر فجأة تلك اللحظة، وروحه تهبط من سقف الحجرة لتعود وتسكن جسده، كان

جميع أعضاء الفريق الطبي حوله يتنهدون في ارتياح وكان أحدهم يقول: إن حامد هذا محظوظ بالفعل، لقد نجا قلبه بأعجوبة من الموت، لكن لابد من إخباره بأن يأخذ حذره، حتى لا يعود إليه الورم الخبيث في صورة أخرى ويميت قلبه.....

****

الخيال

المنظر في حد ذاته كفيل بأن يبث الرعب في قلب أشجع الشجعان، ومع ذلك كان وجهه يحمل ابتسامة ثقة ولمحة من اللامبالاة وهو يجري بتلك السرعة الفائقة داخل غابة خضراء عجيبة، يقفز من فوق جذع شجرة كبير ملقى على الأرض أو يخفض رأسه ليتفادى آخر، تبدو عليه السرعة كأنه خلق من الريح، يقفز هنا وهناك في مهارة مدهشة كأنه يفعل هذا الأمر منذ نعومة أظفاره؛ مما جعل أنثى الأسد التي تطارده على وشك أن تفقد الأمل في اللحاق به، وهي تشعر بمزيج من التعب والغضب، وبالفعل بدأت تهدأ من سرعتها تمهيداً، لأن تتوقف وتتركه يمضي في سبيله، لكن فجأة وصلت المطاردة إلى مشارف الغابة، وظهرت تلك الهوة السحيقة أمامه، وبدا وكأن أنثى الأسد تبتسم وهي على وشك الظفر بطريدتها... كل شيء يوحي بأن الأمر قد حسم بالفعل، لولا ابتسامة الثقة التي زينت وجهه وهو يبطئ من سرعته وينظر إليها قبل أن يقفز، لقد قفز داخل الهوة وتوقفت أنثى الأسد يغمرها شعور بالحيرة، ثم همت بالمغادرة لكنه ظهر مرة أخرى وهو يطلق أصوات طفولية مرحة ويطير بجناحين لم يكونا موجودين من قبل، كان يطير بعيداً في سعادة ومرح وهو على يقين بأن الأمر قد انتهى وبأنه انتصر كالعادة... لكن فجأة ظهر ذلك الطائر العملاق من

العدم وهو ينقض عليه في ثبات وثقة؛ ويستعد لينهش جسده بتلك المخالب الحادة، وتجمدت الصورة فجأة...كان يعرف القوانين تمام المعرفة ويحفظها عن ظهر قلب، فهو يدرك أنه في اللحظة التي يتجمد فيه المشهد يجب عليه أن يغمض عينيه في التو واللحظة، كما يجب عليه أن ينتظر في جمود وثبات حتى تحين اللحظة التي تبث الحياة الروح في المشهد من جديد؛ ليقوم في نشاط ويؤدي دوره المطلوب منه مرة أخرى، لكنه خالف القوانين وألقى نظرة خاطفة قبل أن يدخل في حالة الجمود، ورآه، رآه هناك مستلقياً على ظهره في استرخاء فوق فراش وثير، عيناه مغمضتان وكأنه جزء من مشهد متجمد آخر، يظهر من خلف غشاء نور باهت، وفي اللحظة التي كان هو على وشك الدخول في حالة الجمود خاصته، كان الآخر يتحرك وهو يتململ على فراشه.....

فتح الآخر عينيه وهو مازال مستلقياً على ظهره فوق الفراش، حدّق طويلاً في سقف الحجرة وهو يحاول أن يتذكر ما كان يراه، لقد كان في تلك الحالة بين النوم والاستيقاظ، وأخيراً استطاع أن يتذكر، تمتم بينه وبين نفسه: آه لقد كان هناك صبي يجري وهو يعبر في سرعة غابة عجيبة وأنثى أسد تطارده في استماتة، وهي على وشك الظفر به، خصوصاً حين عبر الغابة ليجد نفسه على وشك السقوط في تلك الحفرة العميقة، نعم لقد كان عليه الاختيار بين التوقف والموت بين أنيابها أو القفز داخل الحفرة والموت في قاعها، لكنه

اختار أن يقفز، ومع قفزته نبت له جناحان حلق بهما عالياً، ثم ظهر من العدم طائر عملاق له مخالب كبيرة، لقد كان الطائر يطارده في قوة وسرعه وهو على وشك الإمساك به، ثم غمغم في حيرة: لكن مهلاً، لماذا لم يخرج ذلك السيف من غمده المعقود حول وسطه؟! لقد توقعت أن يخرج السيف ويقتل به ذلك الطائر، بل إنني كنت أتخيله وهو يقتله فعلاً، ثم ما لبث أن قال في دهشة: لكن العجيب أنّ المشهد قد تجمد هناك فجأة في نفس اللحظة التي عاد فيها إليّ وعيي، مهلاً، لقد نظر ناحيتي قبل أن يتجمد الموقف، أنا متأكد أنه قد فعل، هل يراني هو الآخر كما أراه؟؟؟ لكني أراه في خيالي، نعم هو خيالي... وفي هذه اللحظة شعر بخياله يحاول أن يسيطر على ذلك الجزء من وعيه مرة أخرى، كان يعلم أنه حين يحدث ذلك الأمر؛ فهو يمزج بين ما يراه بعين الباطن مع بعض حواسه ومدركات عقله في الظاهر؛ فتكون النتيجة أنه يرى بعين باطنه أشياء يستطيع أن يدركها ويفسر بعضها، بل كان في بعض الحالات على ندرتها يستطيع أن يتدخل وأن يوجه خياله!!! وغاب عن وعيه ورآه مرة أخرى، كان يحاول أن يفر من ذلك الطائر، لقد كانت الصورة أشد وضوحاً من جميع المرات السابقة، وفتح عينيه فجأة، وعلى غير العادة كان لا يزال يراه أمامه...

من العجيب حقاً أنه كان يدرك ما يراه!!! وخاطب خياله بعقله: أخرج سيفك واقتل الطائر، وبمجرد أن فعل ذلك شعر الآخر في خياله بدفقة من

الطاقة تسري في جسده، لكن قبل أن يخرج سيفه كان الطائر قد وصل إليه بالفعل ونهش جسده، بل ومزق له جناحيه ففقد الوعي وهو يهوي من عالٍ، كان يشعر بمزيج من القلق والحيرة وهو مستلقٍ على ظهره يشاهد الأمر أمامه ولكن بعين خياله؛ فهي المرة الأولى التي يسير الأمر في خياله على عكس ما يريده هو، وبينما كان الآخر في خياله يسقط فاقد الوعي من عالٍ، خرجت الصورة من خياله وأصبحت مشهداً حياً أمام عينيه، كان المشهد يظهر إليه من خلال غشاء شفاف من نور باهت!!!! كأنها شاشة سينما، ومع ذلك فهو لم يأخذ وقتاً طويلاً قبل أن يتجاوز دهشته ويصرخ في الآخر كي يستعيد وعيه، وسمعه الآخر وفتح عينيه قبل أن يتفادى تلك الضربة المميتة من مخلب الطائر، صرخ فيه مرة أخرى أن استخدم السيف، ارتبك خياله وهو ينظر إليه غير مصدق أنه يراه ويسمعه خلف غشاء النور الباهت، وانقض الطائر مرة أخرى وبات من المؤكد أنه سيقتله في هذه المرة... كانا ينظران إلى بعضهما البعض وهما ينتظران انقضاضه الطائر في أي وقت، وتجمد المشهد مرة أخرى، لكن الغريب أن الآخر في الخيال لم يتجمد بل كان يستطيع أن يتحرك داخل المشهد المتجمد، وكأن المشهد من حوله مجرد صورة هلامية؛ مما جعله يشعر بالدهشة، ثم استحال نور الغشاء الباهت ضوء قوى أجبر كليهما على أن يغلقا عينيهما، وحين انقشع الضوء وفتحا الأعين كان هناك ما يشبه الأسطوانة الشفافة تمتد بينهما.... تردد الآخر كثيراً لكنه في النهاية تحرك بحذر وهو يقترب من مدخل الأسطوانة

الشفافة من ناحيته ويدلف إليها، وعبرها ليجد نفسه واقفاً أمام الفراش، اعتدل هو جالساً على طرف فراشه حين عبر إليه الآخر من خياله، وبعد فترة من الدهشة والصمت تحدث إلى خياله وتحدث خياله إليه وفي نفس الوقت؛ عاتب كل واحد منهما الآخر واتهمه بالتقصير، صمت الاثنان ثم بدأ هو الكلام وهو يقول: أنت خيالي ولابد أن تطيعني؛ فأنا من مكاني هنا أرى الصورة كلها مما يجعلني أدرك الأمر بطريقة أفضل؛ ومنها أستطيع أن أوجهك إلى فعل الصواب... لكن خياله نظر إليه نظرة غريبة وهو يطلب منه أن يتركه يفعل ما يراه مناسباً، فهو يتصرف بتلقائية كل في وقته وبحسب الظروف؛ ثم ظفر خياله وهو يقول: إنه في النهاية عالمي وأنا أدرى به، احتدم النقاش بينهما أكثر وتمسك كل طرف منهما بوجهة نظره، وجاء الحل؛ لقد طرح خياله عليه أن يتبادلان الأدوار بينهما، ولاقت عنده الفكرة قبولاً...

وبالفعل ذهب هو إلى عالم خياله وبقي خياله في الغرفة حيث الفراش الوثير، استلقى الخيال على الفراش في استمتاع ونشوة ما بعدها نشوة والهدوء يسيطر على الأحداث من حوله، يشعر بالراحة أخيراً؛ لا يوجد هناك من يطارده؛ كما لا يوجد ما يستدعي الطيران أو الغوص في البحار، ومع ذلك فقد حاول الطيران لكنه لم يستطِع، ثم أغمض عينه لينام فلم ينم، لم يستطِع فعل أي شيء مما اعتاد أن يفعله بسهولة من قبل، ففي عالمه كان

يفعل ما يريد حين يريد من دون عناء، وبعد فترة شعر بالملل؛ فهو وإن أصبح حر الإرادة إلا أنه قد فقد قدراته؛ بل وأصبح يعاني لكي يفعل أي شيء يريده حتى ولو كان بسيطاً.. وهناك في عالم الخيال كان يقف وهو يتلفت حوله في انبهار يتفحص الأشياء، لقد كان يشعر بسعادة تغمر صدره وهو يرى كل تلك الأشياء العجيبة من حوله، طيور وبحار وغابات غريبة، تحرك في مرونة مدهشة وهو يتفادى ذلك الحيوان الذي عبر أمامه ثم طار في تلقائية ليتفادى آخر؛ مما جعله يشعر بنشوة غريبة استمرت معه فترة، ثم لاحظ أنه لم يكن مضطراً إلى القفز أو الطيران لكي يتفادى تلك الحيوانات، وجد نفسه دون إرادة منه يخرج درعاً ليصد عنه تلك الريح التي هبت فجأة؛ عقد حاجبيه وهو يفكر بعمق وأخيراً فهم الأمر، فهو هنا يملك قدرات ما بعدها قدرات لكنه لا يملك الإرادة لفعل شيء معين أو حتى لتحديد ما عليه أن يستخدمه من قدراته تلك.... تحرك هو ودلف إلى الأسطوانة الشفافة وقد قرر أن يعود لعالمه، وبينما هو يسير داخلها وجد الآخر أمامه؛ لقد وجد الآخر أنه من الأفضل أن يعود إلى عالمه هو أيضاً ووقفاً أمام بعضهما.....

حين عاد إلى غرفته مرة أخرى كان خياله قد عبر عائداً إلى حيث ينتمي، لقد عاد إلى عالم الخيال، وفي عقل كل منهما ما زال يتردد صدى حوارهما داخل الأسطوانة، كان يراجع في ذاكرته ما استقرا عليه سوياً، لقد فهم

الخيال أنه يملك قدرات ما بعدها قدرات؛ قدرات تتيح له أن يفعل أشياء مدهشة؛ وأن يذهب إلى أماكن عجيبة، وأن يرى أشياء لم يكن يتصور وجودها، لكنه لا يملك الإرادة ليتخذ خطوات بعينها، ولا أن يفعل أشياء مرتبة، ولا أن يذهب إلى أماكن محددة، نعم فخياله يمتلك القدرات جميعاً إلا القدرة على الفهم والتفسير؛ فهو يفتقد إلى المنطق والقياس وإلا ما كان خيال يسرح إلى هنا وهناك دون قيود... وفهم هو أنه يمتلك كل من الإرادة والعقل والمنطق، لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يوجه خياله حيث يشاء؛ فهو محدود بحدود منطقه وعقله، نعم هو يستطيع المساعدة أحياناً، نعم هو ربما يستطيع أن يحدد المكان الذي يتمنى أن يذهب إليه خياله، بل ربما يحدد الموضوع الذي يريد أن يراه، لكنه أبداً لا يستطيع أن يتحكم فيما يراه الخيال حسب هواه هو ؛ وإلا ما كان خيال بل ستكون مجرد أفكار، لقد فهم أن عليه أن يترك لخياله العنان ليذهبا معاً إلى مناطق أكثر بُعداً، فهم أن عليه أن يعطي لخياله من إرادته هو ليقفز به خياله إلى مناطق الإبداع، يترك لخياله المجال ليريه العجائب، فهم أن عليه أحياناً أن يترجم لا أن يتحكم، وأن عليه أن يبقي على الأسطوانة الشفافة بين العالمين برزخاً يوصل ظاهره بباطنه.....

****

الزلزال

كان رمزي يقف في ذلك المكان العجيب، يتمتم بينه وبين نفسه في دهشة: أشعر أني أعرف هذا المكان، نعم لقد أتيت إلى هنا من قبل، كان يشعر وكأنه يقف على كتل مكونة من النور الأزرق الصافي، ونور أقل زرقة يملأ الآفاق من حوله، كان يأخذ نفساً عميقاً وهو يتمتم في استمتاع: يا لها من رائحة جميلة تزكم أنفي، أنا متأكد أني أعرفها، بل وأحبها وإن كنت لا أستطيع أن أميزها، ولكن ما هذا الذي هناك؟ يبدو كأن شخص ما يقف وهو مسلط عليه شعاع من النور الأبيض، ويوجد عن يمينه وعن يساره صندوقان من الزجاج الشفاف، لكنهما مغلقان تماماً من جميع الجهات، الصندوق الأول الذي عن يمينه يوجد فيه جنين هلامي شفاف؛ حتى أن ما بداخل جسده يظهر واضحاً؛ ها هو قلبه يبدو واضحاً وهو يسكنه ما يشبه الكيان النوراني وإن كان صغير الحجم بطريقة عجيبة، يا له من منظر بديع؛ فهو كلما فتح فمه خرج منه نور أخضر جميل، وفي الأعلى هناك جزء مضيء من المخ، وبين القلب وذلك الجزء من المخ رباط يسري فيه النور صعوداً وهبوطاً، ويجلس بجوار ذلك الصندوق شيخ ضئيل الحجم يرتدي جلباباً أبيض ويشع من وجهه النور..... أما الصندوق الذي على يساره فيحيط الظلام ما بداخله تماماً؛ ومع ذلك فأنا أستطيع أن أميز في وضوح ذلك الجنين الذي يشبه

الجنين في الصندوق الآخر، ولكن على عكس الآخر فقلب ذلك الجنين يسكنه كيان أسود مخيف يخرج من فمه نار كلما فتحه، وهناك في مخ هذا الجنين تبدو ثلاثة نقاط مشتعلة بالنار، ومن العجيب ومع أن هذه النقاط من النار إلا أنهم يرتبطون بالقلب بروابط من السواد الحالك، وبعكس الصندوق الآخر فقد كان يجلس بجوار ذلك الصندوق كيان ناري يرتدي رداء من الظلام... ثم ظهر ذلك الشيخ فجأة وهو يخرج من النور، وكأنه هو نفسه جزء من النور قد تجسد، وهو يرتدي عباءة خضراء ووجهه مضيء تعلوه ابتسامته ودودة..... استجمع رمزي رباطة جأشه وهو يسأله: من أنت أيها الشيخ الجليل؟ نظر إليه الشيخ مبتسماً، ثم قال: أنا لطف الله، دعوة أمك بأن يحفظك ربك، أنا روح من عند الله لأهب لقلبك الحياة، أنا أنت حين تتعرف على الله، أنا صفاؤك وعلمك ومعرفتك، أنا هبة الله لك، أنا روح منك، ثم نظر إليه في شفقة وهو يقول: اليوم حين أصابك الهلع وفزعت؛ مزقوا الدوائر من حولك؛ ونفدَ إليك الظلام بمنتهى القوة والعنفوان ليمزق عقلك ويسرق منك نفسك، ويسكن الشر المجال حولك، بدا صوته متأثراً وهو يقول: لقد فتحوا رأسك بالفعل وكادوا أن يمزقوا روحك بعد أن أظلموا طبقات من نفسك، ضربوا السلاسل حول قدميك وقيدوك؛ فخرجت منك وأنا أبكى، خرجت لئلا يكون لهم سلطان على كامل روحك، أنا الجزء منك الذي غادر طمعاً في كرم ورحمة الله، لعلّي أكتمل بك وتكتمل بي مرة أخرى، أنا الجزء الذي فرَّ منك لكي

ينقزك، أنا الجزء الذي نجا لعلي أكون من الله سبباً لنجاتك، لست أدري كيف سأساعدك فعلمي مطبوع في قلبك، ونوري من روحك، وكل ما في إمكاني أن أفعله هو من خيالك وعقلك، فأنت حقيقة وجودي ومن غيرك لا أكون حقيقة، لا أدري كيف أبدأ لأعود إليك، لا أدري إن كان ما زال هناك روابط بيني وبينك... لا أعلم الكثير ولا أعلم ماذا أنا فاعل فأنا مجرد عبد لله ذليل، ومع كل أريدك أن تنصت إليّ جيداً، وبدأ الشيخ الكلام ومع كلامه ازدادت شدة الأنوار.....

كان ينظر إلى رمزي وهو قول: التذكر والفهم بقدر الحاجة، وصلاح حالك وشفاءك هما غايتي وهمي، كان ينظر إلى مكان قلب رمزي ويتكلم كأنه كان يقرأ منه، ثم نظر إلى رمزي وهو يسأله: أفهمت؟ ودون أن ينتظر إجابته قال: اعلم يا رمزي أن النور الذى ينير القلب على ثلاثة أنوار، نور المعرفة ونور العقل ونور العلم؛ أما نور المعرفة فهو ما يستر الهوى والميل، ونور العقل هو ما يستر الشهوة، ونور العلم يستر الجهل؛ ستكون حرباً ضروساً بين النور والظلام بداخلك، سيستخدم الظلام هواك وشهوتك وجهلك جنوداً له؛ فعليك بنور العقل والمعرفة والعلم لكي تستطيع أن تلجم جماحهم، إن النفس البشرية تقع بين الأشياء وأسبابها من ناحية وبين ربِّ الأشياء ومسببها من ناحية أخرى، وتلك النفس البشرية إذا اتصلت بها الألطاف الإلهية اهتدت وأطاعت الله، وإذا غلب عليها هوى الشيطان وظلمة الطبع

عصت، وهي على ثلاثة أنفس، نفس أمارة بالسوء؛ وذلك حين يغطى جوهرها ران المكاسب الدنيوية وأخلاق الحيوانات؛ وإذا تخلت عن تلك الصفات جميعاً وفي وجود نور الهداية تكون نفس لوامة؛ وإذا أهلها الله لقبول الحقائق الروحانية والعلوم الباطنة والظاهرة تصبح نفس مطهرة... واعلم أن القلب هو بؤرة الوعي والإدراك في الإنسان؛ هو الذي يتحقق به اكتساب المعرفة الباطنة والكامنة؛ فيه صلاح مملكة الإنسان كلها، والحياة بدورها تتصل بظاهر الإنسان وباطنه بواسطة القلب؛ فهو من يوصل القوة الظاهرة وهي الحواس الخمس، النظر والسمع واللمس والشم والتذوق بالقوة الباطنة وهي الأرواح العلوية.... صمت الشيخ قليلاً وبدا وكأنه ينظر إلى اللا شيء ثم عاد ينظر إلى رمزي نظرة شفقة وهو يقول: إن العقل كالأمير في المملكة، ومملكة الإنسان فيها عالمين سفلي وعلوي، ظاهر وباطن، روحي ومادي، وطالما كان العقل يفيض على المملكة مما يترجمه له القلب عما تراه عين البصيرة، فإن الشهوة والهوى وظلمة الطبع وظلمة الشيطان يكون عليهم حجب الأنوار؛ التي تحجبهم وتمنع عملهم: ولكن إن سيطرت قوة ما على مصدر الشهوة في المخ وتلاعبت بها صعوداً سيظهر الهوى ويختفي العقل وهم بالفعل يسيطرون على جزء من عقلك، ومع وجود شيطان بظلمته، تكون النتيجة أن يهيئ لك هذا الشيطان وكأن الرغبات هي طبع فيك وليس عملهم المطبوع، وحينها يكون الحكم للهوى؛ مما يجعل العقل أسيراً بلا منطق أو إرادة للفعل، وبالتدريج يصبح القلب مظلماً

وتذهب الحكمة عن البصيرة؛ وتفقد البصيرة الاتصال بالقلب؛ ويغلف النفس والعقل الغيام والظلام، ثم يصبح الظلام والظلمة فعلاً طبع، وهذا هو غايتهم ومرادهم والذي خططوا له؛ لولا رحمة الله ولطفه بك أن أصبح سلطانهم على جزء منه فقط وليس على عقلك كله... سأله رمزي في حيرة: لكن من هم أيها الشيخ؟ أجابه الشيخ والشفقة تغلف صوته: هم الظلمة والجهل، هم أعداء النور والعلم، هم المتربصون بك، هم الموانع والعوارض، صمت الشيخ قليلاً، ثم ما لبث أن قال: انظر جيداً يا رمزي إلى هذا الإنسان الواقف بين الصندوقين هناك، التفت رمزي وهو ينظر ناحيتهم وأمعن النظر، وكانت المفاجأة أن هذا الإنسان هو رمزي نفسه، كما أصبح الجنينين بداخل الصندوقين على شاكلته هما أيضاً، ملأت وجه رمزي الدهشة وألجمت لسانه؛ فلم يستطِع النطق بحرف واحد، لكن حين هم الشيخ صاحب الرداء الأخضر بالانصراف، عاد رمزي يسأله نفس السؤال: من أنت حقاً أيها الشيخ؟ تنهد الشيخ وهو يقول: عجباً ألم تدرك الإجابة بعد؟ أنا أنت، نورك وعلمك، إيمانك ويقينك، واختفى الشيخ فجأة كما ظهر فجأة، نظر رمزي إلى رمزي الآخر الواقف بين الصندوقين فوجد في عينيه الدمع، فابتسم له وهو يقول: لا تحزن لعلّ الله أن يجعل بعد عسر يسراً، وهنا نظر إليه رمزي الآخر قائلاً: ولكنك لا تعلم؛ فأنت ما زلت نائماً لم تستيقظ بعد، استيقظ يا رمزي استيقظ؛ استيقظ رمزي من نومه على ذلك الشعور الغريب بالغربة والوحشة وصدره يعلو ويهبط بقوة، وهو يأخذ نفسه في

سرعة، ثم ما لبث أن سأل نفسه كيف بدأ كل هذا؟؟؟؟ وبدأ رمزي يتذكر كل الأحداث التي مرت عليه في هذا اليوم، وبالتفصيل....

كان يوماً عادياً من أيام القاهرة، في تلك الفترة من السنة، حيث الخريف يطل بوجهه على الأشجار فيجردها من أوراقها ويتركها شبه عارية، كما يطل على العقول فيجردها من رصانتها، ثم يتلقفها بقوة قبل أن يلقي بها إلى عالم الخيال والغموض، خرج رمزي من الكلية بعد يوم دراسي عادي وإن كان حافلاً بالمحاضرات وبالطبع بالمعلومات الجديدة؛ والتي من شأنها أنها تجذب عقل رمزي وتثير خياله، ها هو يمشي بقوة وثبات واندفاع في آن واحد كعادته؛ متوجهاً إلى المحطة ليستقل الحافلة عائداً إلى بيته، لقد كان لا يطيق صبراً عن الابتعاد عنه وعن أهله..... كان يتمنى من كل قلبه أن تأتي الحافلة غير مزدحمة؛ لذلك فقد شعر بالسعادة وهو يستقلها عندما أتت شبه خاوية؛ بعد أن قطع التذكرة سارع إلى الجلوس بجوار النافذة، كعادته كلما سنحت له الفرصة بالجلوس من الأساس، جلس بجوار النافذة ملتفتاً بوجهه كله يتطلع إلى المنظر في الخارج، كان يتمتم بينه وبين نفسه: يا له من شعور غريب حين يحاول أحدهم أن يستوعب بعض التفاصيل على جانب الطريق في أثناء انطلاق الحافلة، لكن الجميل حقاً هو أن يحاول استيعاب الصورة كاملة في مشهد واحد، ما يلبث أن يتغير باستمرار تاركاً العقل يعمل في جد ونشاط؛ ليستوعب ما يراه ثم يعقد المقارنات بينها من

تلقاء نفسه دون تدخل من صاحبه؛ لقد كان رمزي يملك كل المقومات التي تساعده على ذلك، فهو يملك ذاكرة فوتوغرافية وخيال واسع، لكنه ترك كل هذا فجأة وعاد ينظر إلى اللا شيء؛ مع ذلك الإحساس المفاجئ الذي سيطر عليه بأنه ينتظر شيئاً ما؛ أو كأنه جالس في الحافلة وجزء منه يقبع في مكان آخر؛ أو لعله جو الخريف، تمتم بينه وبين نفسه: هو الخريف ولا ريب، قالها وهو يبتسم ابتسامه مليئة بالقلق.....

مر الوقت على رمزي سريعاً؛ لم يشعر بذلك الوقت الذي استغرقته الحافلة حتى الآن، كان قد مر أكثر من ساعة، وأخيراً وصلت الحافلة إلى آخر محطة لها؛ انتبه رمزي إلى أن محطته قد حانت، فترجل من الحافلة متوجهاً إلى بيته والذى كان قريباً إلى حدٍ ما من المحطة... كان رمزي يسير وهو يشعر بثقل في قدميه عل غير العادة، وبشعور بالغربة ينمو بداخله، اختلط شعور الغربة بواحد آخر أخذ يزداد حدة كلما اقترب من البيت؛ لقد بدأ يشعر أنه يفتقد شيء ما، وأخيراً عاد إلى البيت قبل الثالثة عصراً ببضع دقائق، ذلك البيت القديم الفسيح، والذي يقبع في ذلك الحي الشعبي من أحياء القاهرة، لقد بني ذلك البيت بطريقة غريبة من الأحجار الكبيرة والتي تجعله يبدو نوعاً ما كأثر من الآثار الإسلامية، قسم من الداخل بطريقة جميلة شأنه شأن البيوت القديمة في القاهرة؛ حيث توجد تلك المساحة الخالية غير المسقوفة في وسطه والتي تسمى وسط البيت، وعلى

اليسار غرفة تسلم إلى غرفة أخرى من داخلها، وعن اليمين وبعد ممر قصير يوجد الحمام وعلى يساره مكان آخر فسيح كان يستخدم فيما مضى لتربية الطيور والبهائم، وبينهما سلم يؤدي إلى الدور العلوي والذي لم يكن به سوى غرفة واحدة تسمى الرواق، أما المطبخ فقد كان داخل الغرفة نفسها حيث كان يتم طهي الطعام بواسطة وابور الجاز.... ألقى رمزي التحية على أمه والتي استقبلته كعادتها بابتسامة حنونة لا ينضب معونها وبفرحة مستمرة لا تفتر همتها، ثم قالت: حمداً لله على السلامة يا رمزي، لماذا تأخرت اليوم على غير العادة؟ أجابها رمزي بهدوء: لا لم أتأخر، إنه نفس موعد عودتي كل يوم تقريباً، ثم سأل على إخوته فأجابته أمه أنهم بخير حال، طلب من إمه أن تجهز له أي شيء يأكله؛ فهو يشعر بوحش الجوع يكاد يلتهم أحشاءَه، ثم ذهب ليغير ملابسه، ولكن فجأة شعر بهذا الضجيج يحيط به، صوت قويّ هادر عجيب؛ لم يكن فقط يضرب أذنيه ولكن تنامى وتعاظم بسرعة فكان يضرب صدره ورأسه بمطارق ثقيلة، ثم شعر بتلك الهزة العنيفة تضرب البيت؛ ومع الصراخ المتواصل ومع قدم البيت أيقن رمزي أنه ينهار، إنها المفاجأة تأتي حين لا يكون الإنسان مستعداً لها؛ فتأخذه وتلهو به كيف تشاء؛ تذهب بمشاعره ووجدانه بعيداً؛ ثم تفعل بهما ما تريد، حتى أنها قد تسمح للعدو المتربص به المتحين إلى فرصة ليقفز إلى داخل نفسه ووجدانه؛ على أمل التحكم في أفكاره وشعوره.....

لم يدرِ رمزي ماذا يفعل، هو فقط كان يفعل، كان يصرخ ويصرخ على أمه وإخوته أن يغادروا البيت الذي ينهار، وخرجوا جميعاً وانتهى ذلك الصوت العجيب، واستقر البيت ولم يعد يهتز، وحينها أدرك رمزي أن البيت لم يكن ينهار، ثم شعر بالحيرة مع وجود ذلك الكم الكبير من الجيران الذين غادروا بيوتهم في سرعة هم أيضاً وجروا إلى الشارع، وهنا همس أحدهم في صوت مبحوح وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة: حمداً لله، لقد توقف الزلزال أخيراً، تمتم رمزي في دهشة حقيقية: هو زلزال إذاً، نعم إنه زلزال، زلزل بيته والبيوت من حوله، ولكن أكثر ما زلزل هو رمزي نفسه عقله ووجدانه ونفسه؛ بل وسمح لذلك الكيان المظلم أن يقفز داخل نفسه: شعر حينها وكأن جزء منه قد غادر روحه... لم يكن يدري رمزي لحظتها أنه لن يعود ذلك الشاب المتفوق المقبل على الحياة في ثقة وطموح وأمل، فقد بدأ في هذه اللحظة رحلة لا تشبه أي رحلة، سيسلك طريقاً غير كل الطرق، لقد بدأ رحلة العودة من المجهول وهو يخوض حربه مع قوى الظلام، تلك الحرب التي لم يكن يملك أسلحتها بعد، فهل يعود؟ من الذي سحبه بكل تلك القوة ليلقي به في الهاوية، وبكل ذلك الظلم؟ لازم رمزي ذلك الإحساس بالغربة وعدم الأمان طول اليوم وحتى ذهابه إلى النوم في تلك الليلة.

****

الذكرى القاتلة

كان ذلك الرجل الخمسيني يسير في سرعة وقوة، منتصب الجسد ينظر أمامه في ثبات وكأنه جزء من عرض نظامي، أو ربما هو شعوره الدائم بأنه مراقب؛ ذلك الشعور الذي ينعكس على تصرفاته ويزيد من التزامه بفعل الأمور كلها بالطريقة الصحيحة... لقد اعتاد منذ ثلاثة سنوات تقريباً أن يمارس رياضة المشي مرتين في الأسبوع، يمارسها في روتين ثابت وكأنه سنة من سنن الحياة، يبدأ في ميعاد محدد قبل الغروب بحيث يقطع نفس المسافة ويتخذ نفس الطرق والمسارات؛ ثم يعود بعد الغروب إلى فيلته التي يعيش فيها وحيداً، تلك الفيلا القائمة على ذلك الطريق الزراعي والتي كانت تبدو منتصبة وحيدة وحدة صاحبها؛ فقد كانت أقرب فيلا لها على بعد مائة متر تقريباً.....

انتبه فجأة إلى أنه قد غير مساره، تعجب وهو يتمتم بينه وبين نفسه: كيف حدث هذا! كنت أظن أن قدمي تسير بآلية العادة، هاجمه شعور بالغربة واكتنف عقله الضباب الذي امتد ليشمل الرؤية وهو ينظر إلى ذلك المنحدر الذي قادته إليه قدماه، كانت الصور تهاجم عقله وتلح عليه ليتذكر أمر ما، عقد ما بين حاجبيه وهو يحاول أن يتذكر، وأخيراً لانَ

وجهه وعاد كل جزء منه إلى مكانه الطبيعي وهو يقول: آه إنه المسار الذي كنت أتخذه من قبل، وهنا قفز قلبه إلى قدميه وغامت الدنيا أمام عينيه مع ذلك الصوت الذي أتى من خلفه وصاحبه يقول: هل نسيت حقاً الطريق الذي اعتدنا أن نقطعه سوياً؟!

نظر خلفه ورآه، واتسعت عيناه عن آخرهما وهو يقول بصوت خرج مبحوحاً رغماً عنه: حسام، وصمت ولم يقل شيئاً آخر، نظر إليه حسام في هدوء عجيب وهو يقول: نعم يا كمال، أنا حسام.... ساد الصمت بعدها، تقدم كمال من حسام في حذر، ثم وقف أمامه تماماً وهو يقول: لكن متى عدت؟ رد عليه حسام في هدوء عجيب: أنا لم أغادر قط، هز كمال رأسه بطريقة غريبة وهو يقول في دهشة: لكن كيف؟ فأنا لم أرَك منذ، منذ، قاطعه حسام وهو يقول: منذ عام بالتمام والكمال، آخر مرة رأى فيها أحدنا الآخر كانت منذ عام هنا في نفس المكان، نظر حسام في آلية إلى المنحدر فتبعه كمال بنظره وازدادت حركة رأسه الغريبة حدة...

عاد حسام ينظر إليه وهو يقول بهدوئه العجيب: هل تتذكر الحوار الذي دار بيننا في ذلك اليوم؟ كان كمال يحاول أن يتذكر لكنه شعر بألم في رأسه فقال: لا أتذكر، قال حسام: كنت أنت تتحدث عن الخيانة وعن الأسباب التي قد تدفع الصديق إلى خيانة صديقه، نظر كمال إلى وجه حسام في تمعن ولاحظ لأول المرة الشحوب الذي يغطي وجهه لكنه تجاهله وهو

يقول: أنا لا أتذكر فعلاً يا حسام، كل ما أذكره أنك كنت تسكن الفيلا المجاورة لفيلتي، وأنه منذ انتقلنا إليها قد ازدادت معرفتنا بك، وأننا كنا نقضي معظم الوقت معاً، كما كنا نمارس رياضة المشي بانتظام سوياً، قاطعه حسام وهو يقول: كيف حالها؟ نظر إليه كمال وهو يقول في تردد: تقصد من؟ أجابه حسام في سرعة: أنت تقول انتقلنا ونسكن، انتبه كمال إلى ذلك الأمر بالفعل وحسام يقول: زوجتك، ازدادت حركة رأس كمال الغريبة سرعة وهو ينظر إلى حسام دون أن يجيب....

لكنه كمال قال في سرعة أدهشته هو نفسه؛ فقد خرجت الكلمات أسرع من ذاكرته وهو يقول: أظنك تعرف إجابة هذا السؤال أفضل مني، لقد اختفت في نفس اليوم الذي اختفيت أنت فيه، ثم تسمر في مكانه وساد الصمت، كانت حركة رأسه الغريبة تزداد سرعة وهو يبدأ في تذكر آخر حوار دار بينه وبين حسام هنا في نفس المكان منذ عام بالتمام والكمال، كانت الصورة ضبابية داخل عقله إلا أنه ميز صوته وصورته وهو يتهم حسام الواقف أمامه بأنه يخونه مع زوجته، لماذا قد يخون الصديق صديقه؟ كيف يثق أحدهم في شخصٍ ما، ويدخله بيته وتكون النتيجة أن يستغل ذلك الشخص لثقة! ويخونه مع زوجته! كان ما زال يتذكر هذا المشهد وهو يقترب من حسام الذي تلعثمت الكلمات في فمه في دلالة واضحة على خيانته، يتذكر كيف فرَّ حسام من أمامه، ثم اختفى فجأة، وتذكر عندما عاد في

نفس اليوم إلى البيت ولم يجد زوجته، أيقن حينها أن شكه كان في محله وأن زوجته قد فرت مع صديقه حسام...

خرج كمال من ذكرياته وهو ينظر في كره وغلٍ إلى حسام ويقول بصوت قويّ تردد صداه في المكان: كيف سولت لك نفسك أن تخونني؟ كان كمال يقترب من حسام في سرعة وقوة لكن حسام استوقفه بإشارة من يده وهو يقول في هدوء عجيب: دعني أدافع عن نفسي، أعطني الفرصة التي لم تعطِها لي منذ عام، وقف كمال وهو ينظر إليه في صمت وحسام يقول في هدوء: هناك بعد الأحداث والمشاهد التي من الممكن أن يفسرها الشخص بطريقة خاطئة، يفسرها على هواه أو يفسرها كما يتمنى أن تكون؛ فمثلاً حين رأيتني أقف مع زوجتك في تلك الليلة حين كانت تخبرني عنك وأنها لا تدري ما أصابك مؤخراً؛ وكيف أنك أصبحت قليل الكلام وتشك في أي شيء وكل شيء، رفع حسام نظره إلى كمال وهو يكمل ويقول: ثم أتيت أنت من خلفي في نفس اللحظة التي كانت تقول فيها أحب كمال وهي تنظر إلى الأرض؛ فلم يتسنَّ لك أن تقرأ من حركة شفتيها سوى كلمة أحب، وجد كمال نفسه يتذكر الموقف حين كان حسام يقف مع زوجته في حديقة الفيلا ممسكاً بكوب من العصير في يده، وزوجته تنظر إليه والدموع تتلألأ في عينيها وهي تقول له (أحبّك) لكن المشهد لم يتوقف عند ذلك كما حدث من قبل، لقد وجد نفسه يقترب من زوجته وهي تخفض وجهها إلى

الأرض وتكمل وتقول (كمال) أحبه ولا أدري ماذا أفعل وكيف أساعده، كاد كمال أن يقع على الأرض وهو ينظر في ذهول إلى حسام وهو يتمتم ويقول: لا يمكن، هل من الممكن!!!!.....

لكن حسام لم يجِبه وهو يكمل بهدوئه العجيب: قد ترى مشهداً من زاوية ما، كأن أكون جالساً أنا وزوجتك وهي تريني الهدية التي اشترتها لتهديها لك في عيد ميلادك الذي كان ميعاده بعد يومين حينها، شرد عقل كمال وهو يتذكر ذلك المشهد حين رأى زوجته، وهي تقدم هدية إلى حسام الذي مد يده ليأخذها، لكنه قبل أن يأخذها منها لمحَ كمال وهو قادم نحوهما، فقال في صوتٍ خافتٍ: عليك أن تخفيها فزوجك قد وصل، تذكر كيف تلعثمت زوجته وهي تخفيها بسرعة، واختلف المشهد في هذه المرة أيضاً، لقد رآه في وقت أبكر وزوجته جالسة مع حسام، وهي تقول أن عيد ميلاد كمال بعد يومين وقد أحضرت له هدية ثمينة، وحسام يبتسم وهو يطلب منها أن يراها، لكن زوجته قالت أنها ستريها له على شرط ألا يخبر كمال عنها حتى يأتي عيد الميلاد، كانت تبتسم وهي تمد يده بالهدية لتريها له وهي تقول أرجوك لا تفسد المفاجأة يا حسام، حين خرج كمال من دائرة ذكرياته لم يتمالك نفسه ووقع على الأرض هذه المرة.....

كان جالس على الأرض لا يقوى على الحراك وجسده ينتفض كله من شعره حتى أخمص قدميه مد يده في آلية إلى حسام لكي يساعده على النهوض، نظر

إليه حسام بهدوئه العجيب ولأول مرة منذ التقيا ابتسم حسام، كانت ابتسامة باهته تملؤها الحسرة، وكمال يهم بالاتكاء على يد حسام ليقوم لكن يده اخترقت يد حسام كأنها هواء، وبينما كان يحاول أن يمسكها مرة أخرى سمع صوت الصافرة المميزة لسيارات الشرطة؛ فتسمّر في مكانه على الأرض، اقتربت سيارة الشرطة منه، ثم توقفت أمامه، نزل منها ضابط شرطة ومعه مساعده، مد ضابط الشرطة يده إليه وساعده على النهوض، وقف كمال يتلفت حوله وهو يشعر بالحيرة ولا يكاد يفقه أي شيء مما يدور حوله، وعندما همَّ بسؤال ضابط الشرطة عما يحدث؛ فغر فاه عن آخره وأخت زوجته تغادر سيارة الشرطة والدموع تنهمر على خديها، كان كمال ينظر إلى أخت زوجته التي تبكي هناك في حيرة، وهو يهم بسؤالها لماذا جاءت؟ ولماذا تركب سيارة الشرطة؟ بل ولماذا تبكي؟ جرت ناحيته وهي تلقي رأسها على صدره وتبكي في حرقة، ثم ما لبثت أن تمالكت نفسها وهي تقول: لقد جئت إلى الفيلا أنا وأمي ومعنا أخي الصغير، أردنا أن نفاجئك ونحتفل معك بعيد ميلادك، كما قالت أمي هي فرصة لكي تخرج من حالة العزلة التي أصابتك منذ اختفاء أختي وفرصة أيضاً لنتذكرها جميعاً، أومأ كمال برأسه لكنها لم تستطيع أن تكمل الكلام وهي تبكي في حرقة، فقال الضابط: لقد جاؤوا إلى الفيلا في الوقت المحدد الذي تمارس فيه رياضة المشي؛ بحيث يجهزوا كل شيء للاحتفال بعيد ميلادك قبل أن تعود، وهنا تمالكت نفسها وهي تقول: استخدمت المفتاح الاحتياطي الذي اعتادت

أختي أن تدفنه أمام باب الفيلا تحسباً للظروف، زوى ما بين حاجبيه وهو ينظر إليها لكنها لم تنتبه له وهي تكمل وتقول: كنا نجهز للحفل حين أخذ كلب أخي الأصغر ينبح بقوة دون انقطاع، ثم بدأ بالحفر في الحديقة، وانهارت في البكاء مرة أخرى فقال الضابط: لقد أظهر الكلب جزءاً من جثة مدفونة في الحديقة، ازدادت حركة رأس كمال الغريبة حدة وسرعة والضابط يقول في شفقة واضحة: جثة زوجتك، أستاذ كمال هل تتذكر أي شيء غريب ليلة اختفاء زوجتك؟

انتفض جسد كمال وهو يقول في حدة واضحة: لا لا، عاد الضابط يقول: لقد أبلغت في هذه الليلة عن اختفاء زوجتك، وأيضاً عن اختفاء صديق لك، كان اسمه، قال كمال في سرعة: حسام، نظر كمال ناحية حسام وازدادت حركة رأسه الغريبة وهو يرى حسام يقف هناك ممزق الثياب تغطي جسده الجروح والدم يسيل من جرح كبير في رأسه، وقبل أن يقول كمال أي شيء توجه حسام ناحية المنحدر، وألقى بنفسه من فوقه وكمال يصرخ في قوة لا يا حسام لا، نظر إليه الضابط في دهشة وهو يقول: حسام من؟ قال كمال في حيرة: إنه حسام لقد عاد، كان يقف أمامكم الآن قبل أن يلقى بنفسه إلى أسفل المنحدر، نظر الجميع إليه في حيرة، همس ضابط الشرطة في أذن مساعده بكلمات ذهب على أثرها المساعد إلى أسفل المنحدر، كان الصمت يغلف المكان إلا من صوت نحيب أخت الزوجة،

وضابط الشرطة ينظر في حذر إلى كمال الذي كان ينظر إليه بدوره ولكن في تحفز، انتفضت أجساد الجميع فزعاً مع صوت رنين هاتف الضابط النقال، أصابت الدهشة الضابط وهو يستمع إلى مساعده عبر الهاتف، وصمت لحظات قبل أن يطلب من مساعده أن يبحث عن أي شيء يحدد هويته، مرت لحظات تطلع الجميع فيها إلى ضابط الشرطة الذي بدت عليه الصدمة وهو ينظر إلى أسفل كأنه يبحث عن شيء أو ربما هو كان يبحث عن إجابةٍ ما، وفجأة برقت عيناه وعلت وجهه ابتسامة غامضة، ثم شهر مسدسه وهو ينظر إلى كمال ويقول ببطءٍ وبصوتٍ عميقٍ: أستاذ كمال أنت مقبوض عليك بتهمة قتل زوجتك وقتل صديقك حسام.....

****

البداية والنهاية

في زمان انتشر فيه الجهل وساده الكذب والنفاق، في زمان الأمراض والأوبئة، حين احتل الطمع النفس وطرد منها الضمير، وأصبح القتل أسلوب حياة، وسادت الذنوب دون الشعور بالذنب، في زمان كانت السماء تقذف على الأرض الحجارة بدل من الماء، انتشرت الزلازل وخسف بالناس الأرضين، في هذا الزمان تدور قصتنا....

مال أحدهما على الآخر وهو يهمس له: أنظر، ثم همز برأسه في اتجاه رجل عجوز يفترش الأرض، والآخر يلمز بطرف لسانه تجاه اللفافة التي يمسك بها العجوز في يده، ثم قال: هل ترى كيف تطبق يده في قوة عليها! ماذا يوجد بداخلها يا ترى؟ ابتسم الغماز وهو يقول: أتمنى أن نعرف سريعاً، فهو يبدو عليه المرض الشديد وربما يفعلها ويموت، قال الأول في لهفة خرج معه صوته عالياً رغم عنه: أتمنى أن يكون مالاً، رد عليه الآخر: ربما يكون ذهباً، على كل إذا لم يمت من المرض سوف أقتله بنفسي.... فتح العجوز عينيه ونظر إليهما في صعوبة، خرج صوته ضعيفاً واهناً وهو يسألهم عن الوقت، أجابه اللماز بأن القذف على وشك البدء، وأضاف الهماز بأنه سيكون عليهم أن يتحركوا قريباً؛ فالسماء على وشك أن تقذف الأرض

بالحجارة، كان العجوز ينظر إليهما في حذرٍ ويده تطبق أكثر وأكثر على تلك اللفافة التي يحملها معه، وبينما كان الهماز يشير بوجهه إلى اللماز ليبدآ هجومهما على العجوز ظهر ذلك الشاب وهو يتجه نحوهم فتوقفا على الفور، تنهد العجوز وهو يشير بيده إلى ذلك الشاب ليأتي إليه، توقف الشاب أمامهم وهو يحييهم، مد العجوز يده إليه مما جعل الشاب يمد يده بدوره؛ اتكأ العجوز على يد الشاب وهو يقوم واقفاً في صعوبة، فتح الشاب فاه ليتكلم لكن القذف كان قد بدأ، شلال من الحجارة التي تهبط بسرعة عالية من السماء فتصيب الأرض وتحدث الدمار هنا وهناك، فرَّ اللماز وتبعه الهماز وقد نسيا أمر العجوز واللفافة تماماً؛ وهما يحاولان النجاة بأرواحهما، نظر إليهما الشاب في دهشة وهما يفران ويتركان العجوز خلفهما؛ فأسرع هو يساعده، كان العجوز يستند بيده على كتف الشاب وهما يحاولان أن يجدا مكاناً يحميهما من القذف المميت، وأخيراً وجدا ذلك الفراغ أسفل صخرة كبيرة فأسرعا يدلفان إليه.....

توقف القذف لكن العجوز لم يتوقف عن الكلام، لقد بدا وكأنه قد أصابه الجنون وهو يتحدث بسرعة؛ طلب منه الشاب أن يهدأ ويتكلم ببطء حتى يفهم كلامه، لكن العجوز لم يتوقف وهو يفتح اللفافة فيظهر بداخلها ذلك الشيء، سأله الشاب عنه فأخبره العجوز أنه كتاب قد ورثه عن أبيه الذي ورثه عن أبيه وهكذا لجدود الجدود، كان الشاب ينظر إلى الرجل

العجوز في حيرة واضحة؛ جعلت العجوز يصمت تماماً وهو يفكر في عمق قبل أن يقول: هذا يا بني كتاب علم ونبوءات، كانت تملؤه فيما مضى الكثير من الكتابات، فتح العجوز الكتاب لكنه كان فارغاً إلا من بعض كلمات، نظر إليه الشاب في حيرة والعجوز يقول: أخبرني أبي عن جده أنه فيما مضى كانت توجد فيه كتابات تتحدث عن وجود إلٰه - لكن اسمه قد محي من الكتاب ونسي - هو الربّ الذي خلق الأرض والسماوات، وعن رسول - اسمه قد مُحي ونسي أيضاً - بعثه هذا الربّ بالخير، كان مكتوب عن هذا الرسول أنه قد صعد إلى السماوات، وأنه كان يعلم الناس كيف يعبدون هذا الإله، ومكتوب أن الناس سيسخرون من الرسول وسيحاربونه، وبأنهم سيحاولون أن يفنوا كلامه من الأرض وسننه، لكنهم ولكي يفعلوا ذلك سيفنون معه الأرض نفسها، تنهد العجوز وهو يطلق زفرة حارة قبل أن يقول في حسرة: وأن أجدادنا الأولين كانوا من أتباعه الذين يعرفونه وله مخلصين، وأيضاً في الكتاب أنه سيأتي على هؤلاء الأتباع زمان يساعدون فيه أعدائه على فناء كلامه من الأرض وسننه.. غلبته الحسرة تماماً وخرج صوته مبحوحاً وهو يقول: يا بني لقد كانت الأرض غير الأرض قبل أن يصيبها الخسف، وكانت السماء غير السماء قبل أن ترمينا بالقذف.....

وبعد فترة من الصمت حسم العجوز تردده فنظر إلى الشاب وهو يقول: يا بني سوف أطلعك على سر، لقد كان هناك طعام ينمو فوق أشياء كانت تخرج من جوف الأرض حين ينزل عليها من السماء الماء، فتح العجوز الكتاب وأخذ يبحث فيه فقد نسي بدوره بعض الكلمات، ثم رفع رأسه ناحية الشاب وهو يشير إلى صورة في الكتاب ويقول: نعم كانوا يغرسون في الأرض الحب وينزل عليها من السماء الماء فتحيا الحبة وتنمو لتصبح شجرة، يظهر لها الورق وينموا على جذوعها الثمر، توقف العجوز عن الكلام حين لاحظ أن الشاب ينظر بدهشة إلى الصورة في الكتاب؛ فسأله ماذا هناك؟ أجابه الشاب بأنه رأى شيئاً يشبه هذه الصورة من قبل، فقال العجوز في فرحة غامرة: هل رأيت شجرة بالفعل؟ لكن الشاب عاد يشير إلى الصورة وهو يقول: بأن الشجرة التي رآها كانت دون ما أسميته أنت ثمر وورق وكان لونها مختلف، أشار الشاب بدهشة إلى صورة أخرى في الكتاب فقرأ العجوز المكتوب هناك، ثم أخبره أن هذا هو الغيوم الذي كان يتحول بدوره إلى مطر، أخبره الشاب أنه قد رأى غيمة هناك قرب الشجرة، وضع الشيخ الكتاب جانباً وهو يمسك الشاب من كتفيه في قوة ويحسه أن يأخذه إلى مكان الشجرة والغيمة....

بالفعل، لقد دل الشاب الرجل العجوز إلى حيث توجد الشجرة، وقف العجوز أمام الشجرة ينظر إليها في انبهار وعلى وجهه ابتسامة فخر؛ لقد

رأى شجرة قبل أن يموت، تذكر العجوز أمر الغيمة فسأل الشاب عن مكانها فأشار له الشاب إلى ناحية من السماء فرآها العجوز، كان العجوز شارد الذهن يفكر فيما يجب عليه فعله في هذه اللحظة، حين وقع الكتاب من يده على الأرض، تحرك الشاب بتلقائية وانحنى وهو يمد يده ليلتقط الكتاب، رأى ورقة مطوية تبرز من داخل الغلاف السميك؛ التقط الشاب الورقة في دهشة وقام وهو يعطيها إلى العجوز؛ الذي فضها في لهفة وقرأ ما جاء فيها، وفاضت عيناه بالدموع وهو يقول: مكتوب أن اسم الإله هو الله واسم الرسول محمد، مكتوب أنّ الله بعث محمداً رحمة للعالمين، وأن الصلاة والسلام عليه تحيي القلوب وتفرج الهموم وتشفي الأمراض وتأتي بالخير الكثير، كان الشاب يستمع إلى الرجل العجوز في انبهار، ثم انحنى مرة أخرى وهو يمد يده إلى أسفل ليلتقط الكتاب من الأرض، والرجل العجوز يكمل كلامه في فرح ويقول: مكتوب: أنّ قول اللّٰهُمَّ صل وسلم وبارك على سيدنا محمد تحيي القلوب وتجلب الخير الكثير، رفع الشاب عينيه ورأسه مازالت منخفضة؛ فرأى من منظروه وكأن الغيمة قد كملت الشجرة؛ كأن الغيمة أصبحت الثمر والورق للشجرة، ردد الشاب دون وعي منه اللّٰهُمَّ صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، فشعر وكأنّ هناك ماء قد نزل على قلبه فأحياه، كما تحركت الغيمة في السماء، لتصبح فوق الشجرة تماماً، ونزل منها المطر على الشجرة فأحياها.

محتويات الكتاب

إهداء	5
أشباه البشر	6
العبيد	12
المجذوب	21
اللاجئ	29
العدو الآن	34
طريق الخير	42
تحضير روح كورونا	50
مملكة الران	59
رحلة الصعود	75

قطار الحقيقة	79
قلب مفتوح	86
الخيال	95
الزلزال	102
الذكرى القاتلة	111
البداية والنهاية	119
محتويات الكتاب	124

ـــــ تم بحمد الله ـــــ

تحضير روح كورونا

مجموعة قصصية

طارق حنفي

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com